

المختصر الفقهي



مَسْجِدُ مَرْكَزِ الْفَارُوقِ عَمْرٍو بْنِ الْعَظَامِ

دبي - الإمارات العربية المتحدة

صندوق بريدي 25444

Mail: info@alfarooqcentre.com

booking@alfarooqcentre.com

Tel: + 971 4 394 4448

Fax: + 971 4 394 4448

الطبعة الأولى

1435هـ / 2014م

المختصر الفقهي

تأليف

مُحَمَّدُ بْنُ عَرَفَةَ الْوَرَعِيُّ الْوُضْعِيُّ

المتوفى سنة ٨٠٣ هـ

مصححه ونقحه وعلّق هوامشه

الدكتور حافظ عبد الرحمن محمد خير

أستاذ الفقه بكلية الإمام مالك للشرعة والقانون بدمشق

طبع على نفقة

مؤسسة خلف أحمد الحبتور

للأعمال الخيرية

مؤسسة خلف
أحمد الحبتور
للأعمال الخيرية



KHALAF AHMAD
AL HABTOOR
FOUNDATION



كلمة مؤسسة الجبّور

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

يعتبر التراث الفقهي الإسلامي من دعائم وأسس الحضارة الإنسانية، ويمثل مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمته الله العمود الفقري للمذاهب الفقهية المعتمدة؛ لما تميز به من خصائص فريدة ومميزات كثيرة جعلته في صدارة تلك المذاهب، وذلك بقدرته على مواكبة التطور، وإيجاد الحلول العصرية للحوادث والوقائع المتجددة، وما تميز به من مرونة، واتساع في النظر؛ لذا لم يكن غريباً أن يتخذ مذهباً رسمياً للدولة تسن منه الأحكام، ويرجع به عند الاختلاف .

وإن كتاب المختصر الفقهي، لشيخ المالكية محمد بن عرفة الوردغمي التونسي (ت: 803 هـ) يمثل نموذجاً فريداً بين مؤلفات مذهب المالكية، يجمع بين أصالة الماضي وحدثاثة المستقبل، ويؤسس مؤلفه لمنهج فقهي متميز يعرف عند الفقهاء بالتفقه؛ وهو يهدف لإثراء فقهه واقعي يلمس حياة الناس، ويجد الحلول لما استجد من المسائل المعاصرة والوقائع المتجددة، فكان طباعة هذا الكتاب لأول مرة بعد أن ظل حبيس خزائن المخطوطات لقرون مضت تلبية للحاجة الملحة إليه، وإثراءً وتشجيعاً للبحث العلمي، وإسهاماً في مجتمع شعب الإمارات العربية المتحدة من المجتمعات الرائدة في مجال الثقافة والعلوم من بين المجتمعات المعاصرة.

ونسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المحافل العلمية والمؤسسات الأكاديمية، وطلاب العلم الشرعي، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

خلف أحمد الجبّور



شكر

الشكر لله تعالى أولاً وآخراً؛ إذ هو المنعم والمتفضل على وجه الحقيقة، فيا ربنا لك الحمد والشكر كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك.

وبعد:

فقد قال العارفون: إن كانت عين القلب تنظر أن الله واحد في مننه؛ فالشريعة تقتضي أنه لا بد من شكر خليقته، قال سبحانه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [سورة لقمان آية: 14]، وفي الحديث: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»⁽¹⁾.

وإذا شكرت البحر في إنعامه الدر فاشكر حيلة الغواص

لذا فإني أشكر كل من ساهم، وأعان على إخراج هذا الديوان الفقهي الكبير، من أهل الخير في دولة الإمارات العربية المتحدة (دولة زايد الخير والعطاء)، وآل مكتوم الكرام. وأخص بالشكر الجزيل سعادة/ أحمد خلف الحبتور؛ رجل البر والإحسان، ومؤسسته الراحية للأعمال الخيرية؛ على تبني طباعة الكتاب؛ خدمة لطلاب العلم الشرعي، والمتفقيين على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمته الله.

والشكر والعرفان لكلية الإمام مالك للشريعة والقانون بدي؛ ورئيسها التنفيذي الدكتور عيسى بن عبد الله مانع الحميري؛ المعني بنشر تراث المذهب المالكي، بارك الله في الجميع، وأجزل لهم الأجر والثواب.



(1) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، ج4/ص: 339، وأبو داود باب في شكر المعروف، ج4/ص: 255، وأحمد في مسنده ج2/ص: 295، وكذا أخرجه البيهقي، وابن حبان. وفي معناه عن أنس رضي الله عنه: أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله، قال: (لا ما دعوتم الله لهم وأثنتم عليهم)، سنن أبي داود باب في شكر المعروف: ج4/ص: 255.



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

وبعد:

ففي مطلع عام 2009م شاركت محاضراً في دورة علمية أقامها مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث بالقاهرة، وفيها تعرفتُ على عددٍ من الأساتذة المغاربة الفضلاء؛ منهم الدكتور **عبد المجيد خيالي**، والدكتور **مصطفى الطوي**.

وقد لفت نظري يوم ذاك أن الدكتور خيالي حمل معه نسخة من مخطوط جامع ابن يونس لمسائل المدونة والمختلطة، ونسخة أخرى لمختصر ابن عرفة الفقهية الكبير، وقد أهدى المركز نسخة مصورة رقمياً منها، وبعد أكثر من عامين صدر قسم العبادات من الجامع عن المركز المذكور، واستبطأت صدور مختصر ابن عرفة حتى بدا لي الأمر غريباً برغم علمي بحرص شيخنا الدكتور أحمد بن عبد الكريم نجيب مؤسس المركز ومديره العام على تحقيق ونشر تراث السادة المالكية، فبادرت بسؤاله عن العمل في تحقيق المختصر، فأفادني بأنه نزل - لقاء جعل - عن العمل فيه بناءً على رغبة بعض الباحثين؛ ليقوموا هم بتحقيقه مجزئاً فيما بينهم، فأجاب طلبهم، وحقق مرادهم، وصرف النظر عن تحقيق الكتاب بُعيد الشروع فيه.

ولما طال بهم العهد، ولم ير عملهم النور؛ سألتُه أن يأذن لي في إنجاز العمل، فأجابني بأن لا شأن له في الأمر، وأن الأمر عائدٌ إليّ، واشترط عليّ إن أنا قمت بتحقيق الكتاب أن أبدأ العمل من نقطة البداية، واعتذر إليّ عن تزويدي بالمخطوطات التي بحوزته، والنص الذي قام بكتابته سابقاً؛ لثلا يخفر ذمة، ولا يتنقض عهداً قطعته على نفسه للباحثين الذين نزل لهم عن حق السبق في تحقيق الكتاب ونشره، فالتزمت له بما أَرَادَ.

واستعنت الله تعالى وشرعت في جمع المخطوطات، وقد كان لي في ذلك العون من الله، فتيسرت سبل جمع المخطوطات، وقد سهل أمر تفريغها؛ فتم الأمر على أكمل وجه ولله الحمد.



وهذه بشرى لكل طلاب العلم بكتاب عظيم القدر، جليل المكانة، لا مثيل له بين مؤلفات المذهب، يمثل مدرسة فقهية متكاملة، أسس لها أئمة كبار؛ كاللخمي، وابن رُشد، وبرع فيه شيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن عرفة، هذا الكتاب يؤسس لمنهج فريد في تعليم الأحكام الفقهية؛ وهو ما يعرف بالفتق، الذي يهدف إلى تنمية ملكة فقهية راسخة، تبني هذه الطريقة على جمع كل الأقوال في المسألة الواحدة، ثم نقدها على بساط المقارنة وتحقيق المناط، وبيان مدركها، ووجه الاستدلال عليها، ومدى ارتباطها بأحوال وظروف واقعية، وانطباق القواعد الكلية أو الأصولية عليها؛ ليكون ذلك عوناً للناظر المتفقه أو المجتهد في هذه المسألة للقياس عليها، وتطبيقها على ما يناسبها من قضايا ونوازل.

هذا الكتاب خرج به مؤلفه عن التقييد بطريقة الاختصار التي سار عليها أئمة المذهب؛ كابن الحاجب و خليل بن إسحاق، فجمع فيه اجتهادات وأقوال، وتعليقات علماء القرن السادس ومن بعدهم، ووضعها مع الأقوال المصطلح بين الفقهاء على الأخذ بها تشهيراً وترجيحاً واختياراً، وتميز هذا الكتاب عن غيره بتعريف الحدود الفقهية؛ ليكتمل تصور الناظر فيه عن ماهية الحقائق الشرعية، كما احتوى على جملة من القواعد والأبحاث النظرية، التي تصلح لأن تطبق في عصور مختلفة؛ حيث لم تنزل على الأحداث والقضايا الطارئة بشكل جزئي.

إن هذا الكتاب يمثل - بلا ريب - موسوعة علمية أصيلة بين مؤلفات المذهب ومناهجه الأصولية، نسأل الله تعالى أن ينفع به أمة الإسلام، ويتقبل عملنا فيه بقبول حسن، إنه سميع مجيب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب

حافظ عبد الرحمن محمد خير

دبي - الخميس، 23 صفر، 1435



ترجمة شيخ الإسلام ابن عرفة

نسبه:

هو الإمام العلامة المقرئ المحدث الفروعى الأصولى البيانى المنطقى شيخ الشيوخ وبقية أهل الرسوخ: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الوردغمي؛ والوردغمي نسبة إلى قبيلة ورغمة القاطنة جنوب تونس⁽¹⁾.

مولده:

ولد بتونس 27 رجب 716 هـ الموافق السادس عشر من أكتوبر 1316 م، وممن أكد ذلك ابن فرحون في الديباج، فقال: وذكر لي مولده أنه في سنة ست عشرة وسبعائة، وكذا نقل السيوطي في بغيته⁽²⁾. ومما يؤكد ذلك نقل البسيلى تلميذه في تقييده تاريخ مولد شيخه ابن عرفة حيث قال: (مولد شيخنا ابن عرفة ليلة سابع والعشرين من رجب عام ست عشرة وسبعائة)⁽³⁾.

ولم يختلف في تاريخ مولده إلا فيما نقل عن المقرئ حيث قال: (ولد سنة ست وثلاثين وسبعائة)، ويرى بعض الباحثين أنه تحريف من بعض النساخ.

نشأته:

ولم تنقل كتب التراجم شيئاً عن موطن ولادته، ولا عن نشأته تفصيلاً، أو شيئاً عن تكوين أسرته، إلا ما ورد عن والده، من أنه كان رجلاً عابداً صالحاً زاهداً، جاور المدينة المنورة ولازمها، وأقام بها على منهاج الصالحين، والسلف الماضين إلى أن توفي فيها سنة: ثمان وأربعين وسبعائة، ودفن بالبقيع.

(1) حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ط1 1990 م 762/1.

(2) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية لبنان: 1/ 229.

(3) البسيلى، أبو العباس نكت وتنبهات في تفسير القرآن المجيد تحقيق: الأستاذ/ محمد الطبراني، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - المملكة المغربية: (81/1).

سبق العناية الربانية لابن عرفة:

كان والد ابن عرفة من أكابر الصلحاء كما تشير إلى ذلك كتب التراجم، تعلق قلبه بحب الله ورسوله، فصار مشغولاً ليله ونهاره بهما، وقد روى ابن عرفة في هذا المختصر أن أباه رأى رسول ﷺ في النوم في رؤية صالحة ذات تثبت منها⁽¹⁾، وقد نقل أن سبب تبهر ابن عرفة في العلوم أن أباه كان قد ملك شعرة من شعر النبي ﷺ، فلما ولد له ابن عرفة حكها في ماء وأذابها فيه، ثم سقاها إياه، وكانت أول ما دخل جوفه، فتبهر في العلوم ببركة آثاره ﷺ⁽²⁾.

ولما كان صلاح الآباء نافعاً للأبناء، وكان والده كما أسلفنا صاحب جد وولاية، ظهر أثر هذا الصلاح في ابنه، وكانت صبغته واضحة جلية في حياته، فوالده أول شيوخه، وهو من غرس فيه محبة العلم والعلماء، ورباه على التقوى منذ نعومة أظافره، وكان يرجو له مستقبلاً باهراً، وهو الذي اختار له أهم مشايخه؛ ليدرس عليهم كما سيأتي ذكره، كما كان شديد العناية به جسدياً وصحياً، يحفظه ويصونه من نوائب الدهر ومن الحاسدين، فقد ورد في بعض التراجم أنهم كانوا يحبونه في أيام صغره من رجل عيان كان يسكن بجوارهم خوفاً عليه من الإصابة بالعين، لاسيما، والشيخ كان في صغره حسن الصورة.

وبعد أن انقطع والد ابن عرفة للعبادة والجوار بالحرمين إلى أن مات بها، لم ينس نجله، فقد كان يدعو لولده بعد تهجده، فيصلي على نبيه ويسلم عليه، ثم يقول: يا نبي الله: محمد بن عرفة في حماك، يقول ذلك بشكل مستمر، قال الرّصاع: حتى صحبه اللطف الجميل في حياته، وظهر عليه آثار البركة بعد مماته⁽³⁾.

(1) وفيها: أن أباه قال: قلت له: يا سيدي رسول الله فلان من أهل الجنة؟ - يعني بعض فقهاء عصره - قال: وسميته باسمه، قال: قال لي: عمر القروي، وأحمد السقطي من أهل الجنة، فأعدت عليه مرتين آخرين يجيبني في كليهما بجوابه الأول. انظر النص المحقق: 348/3.

(2) الإفرائي محمد بن الحاج بن محمد، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، مركز التراث الثقافي المغربي، تحقيق د. عبد المجيد خيالي.

(3) الرّصاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري، الهداية الكافية الشافية لحقائق ابن عرفة الوافية، دار الغرب

ومن حرصه على ولده أيضاً وشدة الاهتمام به؛ لم يكن يكتفي فقط بالدعاء له؛ بل كان يطلب الدعاء لولده من الصالحين، فكان يناول عصا الخطيب بالمدينة المنورة للشيخ ولي الله سيدي خليل (1)، فإذا ناوله كان يذكره بولده محمد، ويقول: له ادع الله له (2).

هكذا سبقت يد العناية بالسعادة لشيخنا ابن عرفة، فكان **مؤلفه** في صغره مشهوراً بالجد والاجتهاد والمطالعة والمذاكرة والملازمة لأهل العلم والصلاح؛ فظهرت عليه باكراً مقدمات الفلاح التي أنتجت بعد ما كان فيه من العلم والعمل والصلاح (3). فقد كان يسعى ويجتهد في طاعة ربه؛ ابتغاء ثوابه ومرضاته، فكان يكثر من الصلاة والصيام والصدقة حتى قيل: إنه بلغ درجة كثير من التابعين، ونال درجة الصالحين (4). فكان مسعوداً في دنياه، مرضياً عنه في أخراه، أعزه الله بطاعته، وأطال عمره في عبادته، وقد قال العلامة ابن الأزرق: إن بلوغه الغاية العلمية لا ينكر، ومقامه في المجاهدة من أشرف ما يعرف به ويذكر (5).

وقال تلميذه الإمام الأبي: كان شيخنا من حسن الصورة والكمال على ما هو معروف، وكان شديد الخوف من أمر الخاتمة، يطلب كثيراً الدعاء له بالموت على الإسلام ممن يعتقد فيه خيراً، أعطاني يوماً شيئاً مما يتصرف به الأولاد، وقال: أعطه للولد الذي عندك، وكان ولداً سباعياً - أي: ابن سبع سنين - وقل له: يدعولي بالموت

الإسلامي، ط 1 1993 تحقيق أبو الأجنان، ص: 61.

(1) هو خليل بن عبد الرحمن بن محمد أبو الفضل القسطلاني المكي المالكي كان عالماً ورعاً تقياً توفي 760 هـ، التحفة اللطيفة: 21/2.

(2) التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ط 1 - 2004م بتحقيق د. علي عمر، ص: 127.

(3) المرجع السابق، ص: 128.

(4) الرّصاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري، الهداية الكافية، ص: 63.

(5) مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ط 1 2007م بتحقيق د. علي عمر، ج 2، ص: 20.

على الإسلام؛ رجاء قبول دعاء الصغير، فلحقتني منه عبرة وشفقة⁽¹⁾.
وعلى الرغم من ابن عرفة ترجم غير واحد إلا أن ترجمة البسيلي لابن عرفة تبدو متميزة عن غيرها؛ لأنه تلميذه، وقد كتبها بعد وفاته، فهي أصدق ما كتب عنه، فضلاً على ذلك اهتمامها بالجوانب الوجدانية والاجتماعية التي تغفل عنها كتب التراجم، فقد ترجم له في كتابه «نكت وتنبهات»، و«التقييد الكبير» من ذلك أنه قال: وولد شيخنا أبو عبد الله محمد بن عرفة، سنة ست عشرة وسبعمئة، وحج حجة الفريضة؛ كان خروجه لذلك من تونس بعد صلاة الظهر من يوم الاثنين الحادي والعشرين لشهر جمادى الآخرة من عام اثنين وتسعين وسبعمئة، وقد كان بلغ في تفسير القرآن إلى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [سورة فصلت آية: 47]، ورجع من حجه، فدخل تونس يوم الثلاثاء، التاسع عشر لشهر جمادى الأولى، من عام ثلاثة تسعين وسبعمئة قرب الزوال⁽²⁾.

وأما بالنسبة لصلاحه فقد قال عنه: وكان **رَحْمَةً** مستجاب الدعاء، ومما رأيت من بركته، أي كنت أجلس قبالتة بمجلس تدريسه، فربما تكلم معي بما يقع في خاطري⁽³⁾.

وقال أيضاً: وأخبرني عنه عم والدي، الشيخ الصالح الزاهد العابد أبو فارس عبد العزيز البسيلي، أنه رأى في نومه بعض من كان معاصراً لشيخنا ابن عرفة؛ وهو الشيخ الفقيه المفتي القاضي أبو العباس أحمد بن حيدرة - وكان في نفسه منه شيء - فقال له: اطلب لي منه المحالة؛ لأنني رأيت له منزلة عظيمة عند الله تعالى، فقال له: نعم، قال لي العم: فالتقيت بالشيخ ابن عرفة وأخبرته بذلك، فقال لي: الملتقى بين يدي الله تعالى، ولم يزد على ذلك⁽⁴⁾.

(1) البسيلي، نكت وتنبهات في تفسير القرآن المجيد: (1/ 81).

(2) التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج: (2/ 124).

(3) التنبكتي، أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب 2000م: (2/ 105).

(4) البسيلي، نكت وتنبهات في تفسير القرآن المجيد: (1/ 81).

الحياة السياسية والثقافية في عهده:

كان ميلاده في عهد الدولة الحفصية التي هي مظهر استقرار الدعوة الموحدية في إفريقيا، كان هذا بعد أن مضى النصف الأول من القرن السادس الذي عرف في المغرب العربي بسمة التصدع، والتداعي المنذرين بخراب وشيك بعد تززع الملك الصنهاجي، ونشأت الانقسامات الطائفية، وتمزقت أوصال الرابطة القومية، وبدأت الثغور تسقط أمام الأسيبان والبرتغاليين، فكان النصف الثاني من القرن السادس موعداً برقت فيه الآمال، وبعثت فيه الهمم من جديد.

وعلى أساس الدولة الحفصية قامت دعوة المرينيين فن المغرب الأقصى، ودعوة بني نصر، أو بني الأحمر بالأندلس، وبقوة الدعوة الحفصية تأسست مملكة بني عبد الوادي بتلمسان، هكذا انتظم المغرب العربي في سلك موحدٍ تقوم عليه دول متعاضدة بزعامة الخلافة الحفصية⁽¹⁾.

بهذه الزعامة نهضت مدينة تونس وتعاونها القيروان بالأمانة الثقافية؛ فأصبحت تونس عاصمة لإفريقيّة، وتزاملت مع أخواتها من دول المغرب العربي (غرناطة، وفاس، وتلمسان، وبجاية).

وقد كان من خطة الدعوة الموحدية في الإصلاح إنشاء المدارس؛ لأن إنشاءها من الأفكار الأساسية للمنهج الأشعري في تكوين العقلية الإسلامية، بدأت هذه الخطة في الشرق بالمدرسة النظامية ببغداد، وسار عليها السلطان صلاح الدين الأيوبي؛ حينما عمل على تجديد المذهب السني على الأصول الأشعرية في مصر والشام.

فكان مقصد الموحدين تمديد حركة إنشاء المدارس، والأمر الثابت أن المدارس التي لم تزل قائمة ومعمورة بتونس هي من منشآت الحفصيين، وبفاس من منشآت المرينيين، والتي توجد بتلمسان من منشآت الزيانيين والمرينيين، والتي كانت بغرناطة من إنشاء السلطان أبي الحجاج يوسف بن الأحمر⁽²⁾.

(1) ابن عاشور، محمد الفاضل، أعلام الفكر وأركان النهضة بالمغرب العربي، مركز النشر الجامعي تونس 2000 م، ص: 100.

(2) ابن عاشور، محمد الفاضل، أعلام الفكر وأركان النهضة بالمغرب العربي، مركز النشر الجامعي

كانت هذه المدارس مشابهة تماماً لمثيلاتها الشرقية؛ هدفها تكوين نخبة من طلبة العلم على أيدي الأساتذة المتخصصين، ويقوم منهج الدراسة على تكوين عقل الطلاب بتعليم عناصر الثقافة المتكاملة، وتوليد مهارات الابتكار، وملكة العلم والفقهاء الراسخة، فأخرجت العلم من طور النقل والتلقين حتى أصبح تكويناً وتوجيهاً؛ لتوسيع نطاق المعارف بالبحث والإنشاء والتحرير⁽¹⁾.

ذلك هو المنهج الثقافي الأشعري الذي حمل لواءه بالمشرق الإمام الرازي في القرن السادس، وقد تخرج على هذه المدرسة قاضي تونس العلامة ابن زيتون؛ فكان حلقة الوصل بين ذلك المنهج ومناهج الدراسة التونسية، ومن تلك الصلة تأثر المذهب المالكي تأثراً عميقاً بالدراسة النظرية الأصولية، القائم هيكلها على حسن التقسيم، وبراعة التعليل وعمق النظر، ودقة الجمع والمقارنة.

تخرج على تلك الدراسة فحول العلماء الذين ازدهرت بهم تونس في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن؛ كابن راشد، وابن عبد الرفيق، وابن عبد السلام، وابن هارون، وظهرت خلاصة تلك النهضة في مجدد القرن الثامن الإمام العلامة شيخ الإسلام محمد بن عرفة.

الذي قضى شبابه في جو سياسي هادي، وشهد في المرحلة التالية من عمره بعض الاضطرابات والفتن كان بعضها سبباً في تنشيط الحياة الثقافية، أما الثلاثين سنة الباقية من عمره؛ فكانت مثل فترة شبابه من الاستقرار السياسي أو أفضل.

شيوخه:

تخرج ابن عرفة على فحول علماء وعظماء أساتذة القيروان، فنهل منذ صغره من العلوم الشرعية والعقلية واللسانية، وقد تتلمذ على أيدي مدرسين بارعين، كان لهم الأثر فيما بعد في تكوينه ونشاطه العلمي الحافل، وأهم شيوخه الذين أسهموا في ذلك هم:

تونس 2000 م، ص: 102.

(1) المرجع السابق، ص: 105.

ابن عبد السلام:

وهو: محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري؛ ولد 676 هـ، وتوفي 749 هـ، تولى القضاء، وكان فقيهاً أصولياً، عالماً بالعربية والحديث، شرح ابن الحاجب شرحاً بديعاً سماه «تنبيه الطالب»، قال عنه أبو خالد البلوي: هو اليوم وحيد الأوان، وعلامة الزمان، والمشار إليه بالبنان والبيان ما قرن به فاضل من العلماء إلا رجحه، ولا ألقى إليه مبهم من العلم إلا كشفه وأوضحه، عدلاً في أحكامه، جزلاً في إقدامه، مراقباً لله في فعله وكلامه، له صادقات عزائم، لا تأخذه معها في الله لومة لائم، إلى نزاهة عن الدنيا، وهمة نيطة بالثريا⁽¹⁾.

كان ابن عبد السلام زميلاً لوالد ابن عرفة، درسا معاً على بعض مشايخ العصر⁽²⁾؛ لذا لما عزم على الرحيل إلى المجاورة بالحجاز عهد إلى ابن عبد السلام رعاية ولده.

وهو من أشهر مدرسي ابن عرفة، لازمه كثيراً سمع منه الحديث الموطأ، وصحيح مسلم، وبعض صحيح البخاري، وأتقن عليه جملة من أحاديث الحكم، كما درس عليه تفسير القرآن الكريم كاملاً، وكان من جملة ما درس عليه علوم الحديث، والقراءات والأصول، وأصول الدين، وجملة من التهذيب.

ويعتبر ابن عبد السلام في مقدمة شيوخه من حيث طول الملازمة، وكثرة ما نقل عنه من الفنون، ولم يمنع ذلك من اختلافه معه في بعض الأمور، خلافاً أدى إلى هجر مجلسه مرات عديدة⁽³⁾.

ابن هارون:

هو محمد بن هارون الكناني التونسي، فقيه أصولي، أحد مجتهدي المذهب، من

(1) أبو البقاء خالد بن عيسى بن أبي خالد البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ترقيم الشاملة، ص: 15.

(2) وهو الشيخ أبو العباس السقطي، قال عنه ابن عرفة: كان مؤدباً بتونس عليه قرأ والدي وشيخنا ابن عبد السلام.

(3) التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج2، ص: 128.



مدرسي جامع الزيتونة، شرح مختصري ابن الحاجب الأصلي والفرعي، وله شرح على المدونة، تولى القضاء، تنازع مع ابن عبد السلام في بعض المسائل، ولد 680 هـ، وتوفي 750 هـ، درس عليه ابن عرفة الفقه، وقال فيه: بلغ درجة الاجتهاد المذهبي⁽¹⁾، وذكره خالد البلوي في رحلته، وبالغ في ثنائه بأوصاف سنية، من جملة ما قال: نبغ بما وعى من العلم الأصيلي المعرق، وشفع ما استفاده من علماء بلدة تونس بما استفاده من علماء المشرق، وأظفرتة رحلته بالمبرزين العلماء والمدرسين القدماء، وآب من رحلته، وقد قضى عنه فرضه، واشتأقت إليه أرضه، وكمل فضله، واشتمل على الكمال الإنساني نقله وعقله، فانبسط في العلم بنباهته، وانقبض عن العالم بنزاهته، لزم مطالعة حدائق دواوينه، وحقق إلى متونها عيون حذقه وفهمه ودينه، فنفح الله بعلمه بشراً كثيراً، وأودع له في قلوب عباده من القبول حظاً كبيراً⁽²⁾.

الوادي آشي :

محمد بن جابر بن محمد بن قاسم القيسي الوادي آشي الأندلسي شمس الدين، ثم التونسي المالكي ولد 673 هـ في جمادى الآخرة بتونس، وتفقه على مذهب المالكية، وسمع من أبيه وابن الغماز، وأبي إسحاق بن عبد الرفيح، وأبي محمد بن هارون، وقرأ السبع على أبي القاسم بن أبي عيسى، وأحمد بن موسى بن عيسى البطرني، وغيرهما، ورحل فسمع من البهاء ابن عساكر بدمشق، والرضي الطبري، والجعبري بالخليل، وقرأ على أبي محمد عبد الله بن عبد الحق الدلاصي بمكة، وكتب بخطه كثيراً، وخرج التخاريج، وقرأ الحديث بفصاحة، وكانت رحلته إلى المشرق مرتين؛ الأولى في حدود العشرين، ثم رجع فجال في بلاد المغرب حتى وصل إلى طنجة، والثانية سنة 734 هـ، وكان حسن المشاركة، عارفاً بالنحو واللغة والحديث والقراءة، قال ابن الخطيب: نشأ بتونس، وجال في البلاد المشرقية والمغربية، واستكثر من الرواية، وأكثر من ذلك حتى

(1) التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج2، ص 60.

(2) أبو البقاء خالد بن عيسى بن أبي خالد البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ترقيم الشاملة، ص: 122.

صار راوية الوقت، وكان عظيم الوقار يتصرف في شيء يسير من المال في التجارة، وأسمع في الرحلة الثانية الكثير، وخرج الأربعين البلدانية، وحدث بها، وحدث بالموطأ مراراً عن ابن الغماز وغيره، وكان حسن الأخلاق لطيف الذات، قرأت بخط البدر النابلسي بلغنا أنه قُتل شهيداً، كذا قال والدي.

وقال غيره: إنه مات مطعوناً، فكأنه رأى من وصفه بالشهادة، فظنه قتل.

قال البدر: وكان من العلماء العاملين، ورجع إلى بلاده، فمات في تونس في شهر ربيع الأول سنة 749⁽¹⁾ هـ، وقد سمع منه ابن عرفة الصحيحين.

الأبلي:

محمد بن إبراهيم بن عبد الله الأبلي ولد في سنة 681 هـ، فربي عند جده وتفقه واشتغل، فمهر في العلوم العقلية والآلية حتى فاق أقرانه في ذلك، ثم أكرمه صاحب تلمسان على القيام بما كان أبوه فيه، فكره ذلك، ولبس مسحاً، وتسحب في زي سائل، ورافق بعض الأشراف، فكان يحتلم كثيراً، فاستحى من رفيقه من كثرة الاغتسال، فتناول شيئاً من الكافور، فحصل له في عقله خلل، وحج مع ذلك، وصحب الشريف المذكور إلى العراق، فزوده، وأرسله إلى بلاده، فعاد إلى تلمسان، وأخذ بفاس عن خلوف المغيلي اليهودي، وكان أبرع أهل عصره في فنون الحكمة.

ثم تصدى للتدريس، فأقبل عليه الطلبة، وانتشر ذكره، وأقام مدة بتونس يدرس ويفيد، أقام مدة ببجاية يشغل الناس، ثم عاد إلى تلمسان، فقربه أبو عنان، وقرأ عليه، واستمر بها حتى مات سنة 757⁽²⁾ هـ، وقد أخذ عنه ابن عرفة العلوم العقلية.

السطي:

محمد بن سليمان السطي حافظ المغرب وفتيها، كان مختصاً في الفقه والفرائض إلى درجة أنه ختم الحوفية ثامني ختمات، عرف بالدين والصلاح المتين، والمطالعة المستمرة حتى في مجلس السلطان، مكث بتونس حوالي الستين، أخذ عن أبي الحسن

(1) ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: 484 / 1.

(2) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: 441 / 1.

الصغير، وتفقه بأبي الحسن الطنجي وغيرهما، أخذ عنه كثير؛ منهم: ابن خلدون والمقري، والعبدوسي الكبير، وابن مرزوق الجدي، والقباب (1).

من مؤلفاته: تعليق على المدونة، وشرح الحوفية، وتعليق على ابن شاس فيما خالف فيه المذهب، ولما وصل إلى تونس طلب منه ابن عرفة أن يدرس عليه الحوفية، فقال له: بلغني أنك قرأتها على ابن عبد السلام، فقال له: نعم، ولكن وقفت عليه منها مواضع، قال ابن عرفة: فقال لي: ليس لي وقت إلا ساعة خروجي من عند السلطان، قال: فكنت أنتظره حتى يخرج من عند السلطان، فإذا خرج قرأت عليه في جامع القصبية، حتى إذا وصلنا إلى تلك المواضع التي توقف فيها ابن عبد السلام قررها لي أقرب ما كان وأحسنه، توفي سنة 750 هـ (2).

محمد بن سلمة التونسي (3) الأنصاري:

وهو شيخه في القرآن الكريم: قال الأبي: قال شيخنا أبو عبد الله بن عرفة: ذهب والذي إلى ابن عبد السلام يستشير فيمن أقرأ عليه، قال له: عليك بابن سلمة (4).
قرأ عليه القرآن العظيم بقراءة الأئمة السبعة، قرأ عليه كتاب: «التيسير في القراءات السبع»، كما أخذ القراءات العشر عن ابن عبد السلام، كما أخذ عنه الحديث، ولازمه كثيراً، وأخذ عنه علماً كثيراً.

محمد بن محمد بن الصباغ المكناسي:

العالم المبرز في المعقول والمنقول المتفنن في كثير من العلوم، أخذ عن مشيخة فاس، واجتمع بالأبلي، وانتفع به وابن هرون، أملى بمجلس درسه على حديث: (يا أبا عمير ما فعل النغير) أربعمائة فائدة، توفي بالأسطول الذي غرق فيه السطي سنة 750 هـ (5).

(1) مخلوف، محمد بن محمد شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ج1، ص: 544.

(2) التنبكتي، نيل الابتهاج، ج2، ص: 244.

(3) قال محقق شجرة النور الزكية: وقد حرف إلى سلامة في طبعة، وصوابه ما أثبتته.

(4) إكمال إكمال المعلم، الأبي: ج4، ص: 424.

(5) مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ج1، ص: 544.

أخذ عليه ابن عرفة الحديث، وممن درسه عليه ابن خلدون.

محمد بن يحيى بن عمر المعافري المعروف بابن الحباب:

الامام البارع المحقق المتفنن الأصولي الجليلي، المتقن أخذ عن ابن زيتون وغيره، وأخذ عنه: ابن عبد السلام والمقري، وخالد البلوى وعرف به، وكان يثني على ابن عرفة بالعلم والتحقيق، ونقل عنه في هذا المختصر كثيراً من الأقوال (1).

وقد وقفت أثناء التحقيق على مواضع منها: قوله: فكان شيخنا ابن الحباب ينكر هذا الحكم أيضاً، ويحتج بما تقدم أن القاضي العدل العالم ينظر في حكمه المعين البين الخطأ، ولا أبين من خطأ الحكم بقيمة البناء منقوضاً في مذهب مالك (2). هؤلاء هم أهم شيوخه الذين أثروا على شخصية وغيرهم كثير.

وفاته:

قال البسيلي مدوناً تاريخ وفاته: وتوفي **رحمته الله** ضحوة يوم الثلاثاء، الرابع والعشرين لشهر جمادى الآخرة، عام ثلاثة وثمانمائة، ودفن بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء غد تاريخه، وله من العمر ستة وثمانون عاماً وأشهر (3).

قال: وحبس قبل موته كثيراً من الرباع، وتصدق قرب موته بمال كثير، وترك موروثاً عنه ما قيمته ثمانية عشر ألف دينار ذهباً كبيرة، ما بين عين ودراهم وحلي وطعام ورباع وكتب (4)، ومن نظمه قرب وفاته:

بلغت الثمانين بل جزتها فهان على النفس صعب الحمام
وأحاد عصري مضوا جملة وصاروا خيالاً كطيف المنام
وأرجوا به نيل صدر الحديث بحب اللقاء وكره المقام

(1) مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: ج1، ص: 514.

(2) انظر النص المحقق: 127/9.

(3) وفي موضع آخر قال عنه: وتوفي... يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأولى عام ثلاثة وثمانمائة، وله من العمر سبعة وثمانون عاماً غير شهرين وثمانية أيام.

(4) البسيلي، نكت وتنبهات في تفسير القرآن المجيد: (1/86).

وكانت حياتي بلطف جميل لسبق دعاء أبي في المقام
وقد خمستها الأبى بقوله:

علمت العلوم وعلمتها ونلت الرياسة بل حزمها
فهاك سنيني عدتها بلغت الثمانين بل حزمها
فهان على النفس صعب الحمام

فلم تبقي في الورى رغبة ولا في العلاء والنهى بغية
وكيف أرجيها لحظة وآحاد عصري مضوا جملة
وعادوا خيالا كطيف المنام

ونادى الرحيل بي ومالي مغيث وحث المطية كل الحيث
وإني لـراج وحبى أثيث وأرجوبه نيل صدر الحديث
بحب اللقاء وكره المقام

فيارب حقق رجاء الذليل ليحظى بدارك عما قليل
فيمسى رجائي بموتي كفيل وكانت حياتي بلطف جميل
لسبق دعاء أبي في المقام

ثناء العلماء عليه :

قد أثنى على الإمام ابن عرفة خلق كثير من مشاهير العلماء، وأفاضل الصلحاء،
بينوا سعة علمه وعلو مقامه ومنزلته ووصفوه بأوصاف سنية، وسيرة مرضية، وإنما
يدل ذلك على عظم مكانته، وتميز شخصيته نسوق جملة منها تبركاً فمن هؤلاء:

ابن فرحون حيث قال فيه: هو الإمام، العلامة، المقرئ، الفروعى، الأصولي،
البياني، المنطقي، شيخ الشيوخ، وبقية أهل الرسوخ، تفرد بشيخوخة العلم، والفتوى
في المذهب، له التصانيف العزيزة، والفضائل العديدة، انتشر علمه شرقاً وغرباً،
فإليه الرحلة في الفتوى والاشتغال بالعلم والرواية، حافظاً للمذهب، ضابطاً

لقواعده إماماً في علوم القرآن، مُجيداً العربية والأصليين والفرائض والحساب وعلم المنطق وغير ذلك (1).

ومنهم: الرَّصاع الذي قال فيه: هو شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، الذي افتخرت به أمة النبي عليه الصلاة والسلام، الشَّيخ الولي، العالم الأعلم، الصالح الزكي، القدوة الأسوة، السُّنِّي السُّنِّي، العارف على التحقيق، الهادي إلى الطريق، الدال على التدقيق، صاحب السعد والسعود واليمن والتوفيق، شيخ كثير من شُيوخنا، نهاية العقول في المنقول والمعقول في وقتنا وقبل وقتنا، بقية الراسخين من ساداتنا، آخر المتعبدين من سلفنا (2).

وقال الحافظ ابن حجر: (الإمام، شيخ الإسلام بالمغرب، أبو عبد الله، الفقيه)، ثم قال: (مهر في العلوم، و انتهت إليه الرئاسة في العلم ببلاد المغرب، وكان لا يمل من التدريس، وإسراع الحديث والفتوى، مع الجلالة عند السلطان فمن دونه، والدين المتين، ولم يزل على حاله من العظمة والسؤدد حتى مات) (3).

وقال في كتاب آخر: شيخ الإسلام بالمغرب، اشتغل وتمهر بالفنون، وأتقن المعقول إلى أن صار إليه المرجع في الفنون إليه ببلاد المغرب، وكان معظماً عند السلطان فمن دونه، مع الدين المتين والخير والصلاح، أجاز لي، وكتب لي خطه لما حج بعد التسعين بالإجازة عنه (4).

قال عنه الشوكاني: ومهر في المعقول والمنقول، وصار المرجوع إليه بالمغرب، وتصدى لنشر العلم مع الجلالة عند السلطان فمن دونه، والدين المتين، والتوسع في

(1) ابن فرحون، الدباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ط 1، 2003م.

(2) الرَّصاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري، الهداية الكافية، ص: 65.

(3) أبو الفضل، الحافظ أحمد بن علي، الشهير بابن حجر العسقلاني، المجمع المؤسس، للمعجم المفهرس.

(4) أبو الفضل، الحافظ أحمد بن علي، الشهير بابن حجر العسقلاني إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ: (337 /4).

الدنيا، والتظاهر بالنعمة في مأكله وملبسه، وكثرة الصدقة والإحسان إلى الطلبة، مع إخفائه لذلك (1).

قال الشيخ الطيب ابن علوان: فاز من كل علم بأوفر نصيب، وحاز في الأصول والفروع السهم والتعصيب، ورمى إلى هدف كل مكرمة بسهم مصيب، وطلعت بسماه أفادته دراري علم غيثهم وابل ومراعهم خصيب، فمفعمته بعد وفاته دائمة، وبركته بوفاته وتلامذته وأوقاته قائمة، إذ مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، جمع بين طرفي العلم والعمل، وشغل أوقاته بخير، فليس وقت منها يهزل، أيامه صيام، ولياليه قيام وركوع وسجود، وجاهد هجوم الليل، وآثر التهجد على الهجوع والهجوم، شيخ الإسلام بالمغرب (2).

وقال الشيخ أبو مهدي الغبريني: لا يرى ولا يسمع بمثل سيدي ابن عرفة في ثلاثة: الصيام، والقيام، وتلاوة القرآن، إلا ما يذكر عن رجال رسالة القشيري، فلا تراه أبداً إلا صائماً، ويقرأ عشرين حزباً في ساعة معتدلة، وقيامه معلوم، يقوم في جامع الزيتونة العشر الأواخر من رمضان كل عام حتى عجز قرب وفاته.

وقال تلميذه الشمس بن عمار: أخذ عنه المصريون، وهو إمام حافظ وقته بفقته مذهبه شرقاً وغرباً، انتهت إليه الرئاسة في قطره، أجمع في الفنون والتحقيق، والمشاورة مع خشونة جانبه وشدة عارضته، وبراءته من المداهنة، وحزر من المخاشنة (3).

وقال تلميذه أبو حامد ابن ظهيرة المكي في معجمه: إمام علامة، برع أصولاً وفروعاً، وعربية ومعاني وبياناً، وقراءة وفرائض وحساباً، وكان رأساً في العبادة والزهد والورع، ملازماً الشغل بالعلم، رحل إليه الناس، وانتفعوا به، ولم يكن بالغرب من

(1) الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: (2/248، بترقيم المكتبة الشاملة آليا).

(2) التنبكتي، نيل الابتهاج: 132/2.

(3) التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب 2000م: 103/2.

يجري مجراه في التحقيق⁽¹⁾، ولا من اجتمع له من العلوم ما اجتمع له، تأتيه الفتوى من مسيرة شهر، له مؤلفات مفيدة لم يخلق بعده مثله⁽²⁾.

قال عنه العلامة ابن السالك: (وقد رأيت للشيخ علي الأجهوري في أجوبته: أن الإمام ابن عرفة لا ينعقد الإجماع دونه في زمنه)⁽³⁾.

وقال الشيخ محمد الشافعي بن محمد بن القاضي: رئيس الحضرة التونسية، علامة زمانه، وإمام البلاد الإفريقية، نادرة أوانه مالك أزمة فروع المنقول، وقطب دائرة فنون المنقول، الموجز الكبير الحاوي من الفقه الأقاليل، وعلامة الأرض كما قيل.

وقال عنه الإمام السنوسي: علم الأعلام، ورأس الأئمة النظار⁽⁴⁾.

واعتبره الحافظ أبو عبد الله الحافظ بن القصّار من مجددي الدين في المائة الثامنة، فجاء ضمن نظمه للمجدين:

وقيل سهل ثم راس خامسه سيدنا الغزالي شيخ الدارسه
وقد اتى الفخر براس التابعه لا الرافي وابن دقيق بالسابعه
بالثامنة بلقيني أو عراقي لا سبط ميلاق رد بالفراق
قلت او ابن عرفة والتاسعه سيوطنا وخاتم عيسى اسمعه
لا تشترط في القطب والمجدد نسبا إلا العلم بالمعتمد⁽⁵⁾

ونختم بابن فرحون كما بدأنا به حيث قال: تخرج على يديه جماعة من العلماء

(1) قال التنبكتي: يعني والله أعلم بالنسبة لآخر عمره، أو ببلاد إفريقية فقط، وغلا فقد كان بالغرب الأوسط والأقصى والأندلس من هو مثله، ولا يتقاصر عن رتبته فيما ذكر من جمعه وتحقيقه وذكر: الشريف التلمساني، والإمام المقري والقاضي العقباني والقباب وغيره، نيل الابتهاج: 134/2.

(2) التنبكتي، نيل الابتهاج: 134/2.

(3) عون المحتسب فيما يعتمد من كتب المذهب، ص: 103.

(4) نقلت عن مخطوطات خاصة بواسطة الشيخ نزار حمادي عند ترجمته لابن عرفة، درر المعرفة، ص: 50.

(5) نسبها إليه الشيخ نزار حمادي باطلاعه على مخطوطته، درر المعرفة، ص: 26.

الأعلام، وقضاة الإسلام، فعن رأيه تصدر الولايات، وبإشارته تعين الشهود للشهادات، ولم يرض لنفسه الدخول في الولايات؛ بل اقتصر على الإمامة والخطابة بجامع الزيتونة، وانقطع للاشتغال بالعلم، والتصدر لتجويد القراءات.

أجمع على اعتقاده ومحبه الخاصة والعامة، ذا دين متين، وعقل رصين، وحسن إحاء، وبشاشة وجه للطلاب صائم الدهر، لا يفتر عن ذكر الله وتلاوة القرآن إلا في أوقات الاشتغال منقبضاً عن مداخله السلاطين لا يرى إلا في الجامع أو في حلقة التدريس لا يغشى سوقاً ولا مجتمعاً ولا مجلس حاكم إلا أن يستدعيه السلطان في الأمور الدينية كهفماً للواردين عليه من أقطار البلاد يبالي في برهم والإحسان إليهم وقضاء حوائجهم، وقد خوله الله تعالى في رياسة الدين والدنيا ما لم يجتمع لغيره في بلده له أوقاف جزيلة في وجوه البر وفكاك الأسارى ومناقبه عديدة وفضائله كثيرة⁽¹⁾.

قال محمد الأمين (عرفات):

محمد الفهامة ابن عرفه علامة الدنيا له كانت صفة
ذاك الإمام الشيخ للشيوخ عمدة ذي التحقيق والرُسوخ
وقد روى عن ابن عابد السلام وابن الحباب وابن هارون الإمام
أما الذي عنه روى فلا يعد لكثرة ولم يكن أيضاً مجذ
صنّف مختصر فقهِ فأفاد كما بمختصر منطقي أجاد
وفي حدوده له إبداع تلك التي شرّحها الرّصاع
لتاسع القرون عاش وقضى في ثالث منه الإمام المرتضى⁽²⁾

(1) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ط1، 2003م.

(2) عرفات، محمد الأمين، رشف الفضال من تراجم أعلام الرجال، مركز نجيويه لتحقيق التراث، ط1، 2010م

وظائفه:

لا شك أن من حاز هذا القدر من الفضل والعلوم لا بد أن يتصدى لنشر علمه بعدد من الوسائل، وقد كان ذلك من ابن عرفة، الذي تولى وظائف متعددة؛ كالتدريس والخطابة والفتوى والتأليف، مكنته من إرساء منهجه، فكان **رحمته** موسوعة علمية بحق، أثر في أجيال تلتها، وأخذوا عن تلاميذه أو كتبه.

التدريس:

درس لقراءة نصف قرن علوم الشريعة الإسلامية المختلفة في كثير من المحافل العلمية بتونس، كالجامع المعمور، والمدرسة التوفيقية التي كان يدرس بها من صلاة الفجر إلى قرب الزوال⁽¹⁾.

كان يبدأ دروسه بالتفسير الذي ختمه عدة ختمات، وتعاقبت عليه فيه طبقات، ولخص تلك الدروس كثير من تلاميذه⁽²⁾؛ أشهرهم ثلاثة: تونسي وهو الأب، وجزائري وهو البسيلي، ومغربي وهو السلوي.

وإلى جانب التفسير كان يدرس القراءات والحديث، والفقه والأصول، والكلام والمنطق والفرائض والحساب، ومنهجه في التدريس سيأتي الحديث عنه تفصيلاً؛ لكنه يعتمد بشكل أساسي على البحث والنظر، والجمع والتحليل والمذاكرة، والنقاش مع طلبته في جو من الانشراح واللطافة⁽³⁾.

كانت دروسه تلقى في جو من المرح تبعد عن الطلاب الملل والسآمة؛ بل كان حريصاً جداً حتى على مسألة تنظيم جلوس الطلاب، ومن أقواله في هذا: مقاعد الطلبة يقضى لهم بها عند التشاح⁽⁴⁾.

(1) محمد الطاهر الجواي، محمد بن عرفة حياته وآثاره، ملتقى الإمام ابن عرفة بمدينة، وزارة الشؤون الثقافية تونس 1976 م، ص: 54.

(2) ابن عاشور، أعلام الفكر وأركان النهضة بالمغرب العربي، ص: 104.

(3) محمد الطاهر الجواي، محمد بن عرفة حياته وآثاره، ملتقى الإمام ابن عرفة بمدينة، وزارة الشؤون الثقافية تونس 1976 م، ص: 56.

(4) محمد الطاهر الجواي، محمد بن عرفة حياته وآثاره، ملتقى الإمام ابن عرفة بمدينة، ص: 56.

كان هذا المجلس يستوعب كل المستويات، فالكل ينهل على حسب مستواه العلمي، قال أحد تلاميذه: ما رأينا مثل مجلس شيخنا رحمته الله في تحقيقه وتفسيره وفصاحة لسانه، وحلو منطقته، وإن مجلسه كالنهر العذب يرده العصفور، والجمل كل يرد على قدره⁽¹⁾.

الإمامة:

فرض ابن عرفة نفسه من بين علماء تونس لتولي الإمامة بالجامع الأعظم، رغم أن أهل تونس لا يولون خطابة جامعهم إلا من هو من بلدهم، وقد تولى الإمامة أولاً سنة 756 هـ، ثم الخطابة بعد ذلك سنة 772 هـ.

قال في الحلل السندسية: لما تولى الخطابة بجامع الزيتونة أباه أهل تونس؛ لأنه ليس من أهلها، إلى أن اشترطوا عليه شروطاً قبلها، منها أن لا يأكل التين، فقال: من فضل الله ما أكلته قط، ومنها أن لا يمشي في الأرض حافياً، فقال: لا أتركها ولا في المسجد، ويقال: إنه هو الذي ابتكر «مداس الحلفة» يمشي به في المسجد للخروج إلى الصلاة على الجنائز إلى اليوم⁽²⁾.

ولم يتخلف عن الإمامة منذ وليها إلى أن توفي رحمته الله، إلا عندما مرض سنة 766 هـ، أو عندما يكون في شأن من شؤون المسلمين، وكذا عندما حج، ومن أخباره فيها: أنه امتنع عن صلاة الاستسقاء؛ لئلا يؤدي ذلك إلى قلة الطعام وارتفاع الأسعار، وكان يخفف الصلاة إذا نزل المطر رفقة بمن في الصحن.

الفتيا:

تولاها سنة 773 هـ، حيث كان أهلاً لها، ولم يتول القضاء، وكان يقول في خصوص الجمع بين القضاء والإمامة: إن العرف بتونس في القديم والحديث منع قاضي الجماعة والأنكحة للإمامة بجامعها الأعظم، قال: وسمعت من يعلله بأنه مظنة

(1) المرجع السابق، ص: 57.

(2) محمد الطاهر الجوابي، محمد بن عرفة حياته وآثاره، ملتقى الإمام ابن عرفة بمدنين ص: 57.

أن لا يرضى به الخصوم، فيؤدي إلى إمامة من هو كاره له (1).

مؤلفاته:

المختصر الفقهي: وهو أكبر كتبه وأهمها وأشهرها، بدأ في تأليفه سنة 772 هـ، وأتمه في سنة 786 هـ، جمع فيه مسائل المذهب، مصدراً كل باب بتعريف ماهيات الحقائق الفقهية الكلية له، اعتمد فيه بالدرجة الأولى على المدونة، وأورد كثيراً من أقوال أئمة المذهب كابن الحاجب، وابن عبد السلام، وغيرهم مع نسبة كل قول لصاحبه، ويكملها بمناقشاته وتوضيحاته المفيدة.

واشتهر المختصر الفقهي بعدة أسماء منها: (المبسوط في الفقه، التقييد الكبير في المذهب، اختصار مجموع ما ألفته المالكية في الفقه)، وهو مما وقفنا عليه في بعض مخطوطاته، ولم يذكره أحد في كتب التراجم، وتختلف تجزئة أسفاره ما بين خمسة وسبعة وعشرة.

المختصر في أصول الدين: ويسمى المختصر الشامل، أتم تأليفه سنة 789 هـ، قال في مقدمته: ورتبته على منوال طوابع الأنوار للشيخ القاضي ناصر الدين البيضاوي رحمه الله ليكون معيناً على فهمه.

مختصر في علم المنطق: ولهذا المختصر شرحان: الأول: شرح محمد بن يوسف السنوسي الجزائري المتوفى سنة 895 هـ، الثاني: شرح محمد الشافعي بن القاضي، واسمه نتائج الفكر في شرح المختصر (2).

مختصر في أصول الفقه: أتمه سنة 799 هـ.

مختصر الحوفي في الفرائض: اختصر فيه متناً في الفرائض؛ ألفه أحمد بن محمد بن خلف الحوفي الإشبيلي المتوفى سنة 588 هـ.

الحدود الفقهية: شرحها محمد بن قاسم الرصاع.

(1) محمد الطاهر الجوابي، محمد بن عرفة حياته وآثاره، ملتقى الإمام ابن عرفة بمدينة ص: 58.

(2) حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، ج 1، ص: 762.

نظم قراءة يعقوب: ذكره ابن حجر في إنباء الغمر: 192/2، والسخاوي في الضوء اللامع: 240/9، وحاجي خليفة في كشف الظنون. تساعايات في الحديث: ذكره صاحب الكشف، ص: 403. نظم تكملة القصد لخلف بن شريح ذكره القرافي في توشيح الديباج نقلاً عن إجازة أحمد بن علوان لابن مرزوق، وعنه نقل صاحب الحلل (1). تقييد في تحقيق القول بالجهة والسمت (2). أما التفسير: فقد رويت أقواله في مجالس درس التفسير، ولم يكتب تأليفاً مستقلاً، دونت تلك الأقوال في كتب عدد من تلاميذه، اشتهرت منها ثلاثة كتب لأشهر أصحابه، وهم الشيخ الأبي، والشيخ البسيلي، والشيخ السلاوي، فقد قيدوا إملاءات ابن عرفة التفسيرية، والفوائد الفريدة، والدرر النفيسة التي تلقى في مجالس درسه. أما تقييد الأبي؛ فهو أوسعها وأقربها إلى أسلوب ابن عرفة، وأما البسيلي؛ فيختلف عنه في الاعتماد على بعض المصادر التفسيرية والتاريخية التي لم يعتمد عليها الأبي، إضافة على أن البسيلي لا يتقيد دائماً بعبارة ابن عرفة، أما رواية السلاوي؛ فما تزال مفقودة، وحقق الكثير من تلك المخطوطات في رسائل جامعية (3).

طلابه:

كان لطول المدة التي قضاها ابن عرفة في التدريس مع الشهرة العلمية الكبيرة تأثير عظيم في زيادة أعداد الطلاب الذين أخذوا العلوم الشرعية المختلفة، وجل تلاميذه الذين تأثروا به كانوا ممن استقر بتونس، غير أن له طلاباً مشاركة من المدنيين والمصريين الذي التقوا به خلال رحلة حجه، كالحافظ بن حجر العسقلاني، الذي أخذ عنه الإجازة، وكتبها له بخط يده (4)، وكان بن عمار المصري الذي أذن له في إقراء المختصر الفقهي.

(1) المرجع السابق، ص: 762.

(2) ذكره الرصاص في شرح حدود بن عرفة، ص: 55، 56.

(3) نزار حمادي، درر المعرفة، الفوائد المستخرجة من تفسير الإمام ابن عرفة، ص: 44، 45.

(4) السخاوي، الضوء اللامع، ج 9، ص: 235؛ بل ذكر ذلك ابن حجر في إنباء الغمر في أبناء العمر.

قال السخاوي في ترجمته لابن عمار: وأذن له معظم شيوخه في الإقراء والإفتاء؛ كابن عرفة⁽¹⁾، ومنهم ابن فرحون برهان الدين بن إبراهيم قال عنه في الديباج: (ولما زار المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، نزل عندي في البيت، وكان يسرد الصوم في سفره وهو باق بالحياة)⁽²⁾، وعمن التقى بهم في رحلة الحج: البدر الدماميني، وأبو حامد بن ظهيرة المكي وغيرهم.

وأما الذين لازموا في تونس، وأخذوا عنه فهم كثيرون، نقتصر منهم على ذوي المكانة والفضل، وهم ممن ألف، وظهر فيهم أثر ابن عرفة، ونقلوا عن آراءه أمثال: الأبي، والبرزلي، والبسيلي، وعيسى الغبريني، وابن مرزوق:

الأبي: أبو عبد الله محمد بن خليفة المعروف بالأبي الوشتاتي؛ الإمام البارح المحقق العلامة، والأصولي المتقن، والفقيه المحدث، والحافظ المفسر، ناظم، ولي قضاء الجزيرة سنة 808 هـ، واشتهر في حياته بالمهارة، والتقدم في الفنون، أخذ عن ابن عرفة ولازمه، وهو من أميز طلاب، وكان يثني عليه ثناءً عطرًا، قال عنه عندما سئل عن اجتهاده في تحضير دروسه: كيف أنام وأصبح وأنا بين أسدين الأبي بفهمه وعقله، والبرزلي بحفظه ونقله، وصفه أبو عبد الله المشدالي بالفقيه المحقق العالم، أخذ عنه جماعة من الأئمة؛ كالقاضي عمر القلشاني، وأبي القاسم بن ناجي، وعبد الرحمن المجدولي، والثعالبي، والشريف العجيسي، وغيرهم، له شرح جليل على صحيح مسلم سماه إكمال الإكمال مشحون بالأحكام، جمع فيه بين المازري، وعياض القرطبي، والنووي، وذكر فيه كثيراً من الفوائد التي استفادها من شيخه ابن عرفة، هذا الشرح مطبوع في سبع مجلدات مع شرحه المسمى بمكمل إكمال الإكمال لمحمد بن يوسف السنوسي المتوفي 895 هـ، وله شرح على المدونة، وتفسير القرآن في ثمان مجلدات، وكثر انتقاده لشيخه ابن عرفة مشافهة، وربما رجع عليه؛ مثل ما فعل في تعريفه للطهارة، ومن أخباره مع شيخه أنه كان إماماً بجامع الهواء، وقدم ليلة التروايح قبل صلاة العشاء، والتقى به ليلتها، فسأله

(1) السخاوي، الضوء اللامع: 4/ 214.

(2) ابن فرحون، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ج2، ص: 57.

من نوبت؟ فقال: قدمتها، فقال له: كنت أظنك أروع من هذا، وكنت أظن أني إذا مت خلفت من يؤخذ عنه العلم بعدي، توفي 823 هـ (1).

أبو مهدي عيسى بن أحمد الغبريني: قاضي الجامعة، وخطيب جامع الزيتونة بعد ابن عرفة، قال عنه ابن ناجي: إنه ممن يظن به حفظ المذهب بلا مراجعة، أخذ عنه جمع من تلاميذ ابن عرفة؛ كالبرزلي وابن ناجي (2).

البسيلي: أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الإمام الفقيه العالم العامل الخبير الشيخ الفاضل، أخذ عن ابن عرفة وأبي العباس البطرني، وأبي مهدي عيسى الغبريني، له تقييد في التفسير قيده عن ابن عرفة، فيه فوائد مهمة ونكت، حضر عن ابن عرفة سنة 785 هـ، وتوفي سنة 830 هـ (3).

البرزلي: أبو القاسم ابن أحمد البرزلي (4) البلوي، القيرواني المفتي الحافظ، من أئمة المالكية بتونس في عصره، وصف بشيخ الإسلام، أخذ عن ابن عرفة، ولازمه نحو أربعين عاماً وأجازه، ولازم أبا الحسن البطرني، وأخذ عنه القراءات، وسكن تونس، وانتهت إليه الفتوي فيها، وقدم القاهرة حاجاً، فأخذ عنه بعض أهلها، وأخذ عنه جماعة منهم: ابن ناجي التنوخي، وحلولو، والرّصاع، وابن مرزوق الحفيد، من تصانيفه «جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا للمفتين والحكام»، وقد يكون مختصراً من كتابه ((الفتاوي))، وله ديوان كبير في الفقه وكتباً كثيرة، وأحزاب الإمام الشاذلي، اختصر كتابه في النوازل حلولو، واستفاد منه البوسعيدي والونشريسي، وله فتاوى كثيرة في فنون من العلم، توفي سنة 841 أو 843 أو 844 هـ (5).

- (1) انظر ترجمته في: نيل الابتهاج، للتنبكتي: 175/1، 158، وشجرة النور، لمخلوف: 244/1، ومعجم المؤلفين، لكحالة: 287/9، ومعجم المطبوعات، لسزكين: 363/1.
- (2) انظر ترجمته في: شجرة النور الزكية، ص: 243، ونيل الابتهاج، ص: 193.
- (3) انظر ترجمته شجرة النور الزكية: 75/2، ونيل الابتهاج: 117/1.
- (4) نسبة لبرزلة بضم أوله وثالثة، هكذا ضبطها غير واحد.
- (5) انظر ترجمته في: الضوء اللامع: 133/11، ودائرة المعارف الإسلامية: 535/3، والأعلام: 6/6، وشجرة النور، ص: 245.

ابن مرزوق: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق، أبو عبد الله العجيسي التلمساني المالكي، ويعرف بحفيد ابن مرزوق، وقد يختصر بابن مرزوق، ولد 766 هـ، واشتغل ببلاده، وتلا لنافع على عثمان، وانتفع به في القراءات والعربية، وبجده وابن عرفه في الفقه وغيره، وحج قديماً سنة تسعين ربيعاً لابن عرفه، وسمع من الدماميني بالاسكندرية، والعقيلي بمكة، وفيها قرأ البخاري على البلقيني، وابن الملقن والعراقي، وله تصانيف منها: المتجر الربيع، والمسعى الرجيح، والمرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح لم يكمل، وأنواع الذراري في مكررات البخاري، وإظهار المودة في شرح البردة، ويسمى أيضاً صدق المودة⁽¹⁾، ونور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين؛ تكلم فيه على رجال المقامات كالنقباء والنجباء والبداء، وانتهاز الفرصة في محادثة عالم قفصة، وهو أجوبة عن مسائل في فنون العلم، وردت عليه من المشار إليه، وشرح التسهيل، وكذا ألفية ابن ملك، ومختصر الشيخ خليل، وسماه المنزع النبيل، ولم يكملا، وابن الحاجب، والتهذيب، وسماه روضة الأديب، ومنتهى أمل اللبيب في شرح التهذيب، والجمل للخونجي، وسماه منتهى الأمل ونظم المتن، وعمل عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد، والآيات البيّنات في وجه دلالة المعجزات، والدليل الواضح المعلوم على طهارة ورق الروم، وجزء في إثبات الشرف من قبل الأم، وغير ذلك⁽²⁾، ومن مما وقع له مع شيخه ابن عرفه (ما حكى في بعض فتاويه، قال: حضرت مجلس شيخنا العلامة نخبة الزمان ابن عرفه **رحمته الله** أول مجلس حضرته فقراً:

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ [سورة الزخرف آية: 36].

فجری بیننا مذاکرات رائقة، وأبحاث حسنة فائقة منها: أنه قال: قرئ يعشو بالرفع، ونقيض بالجزم، ووجهها أبو حيان بكلام ما فهمته، وذكر أن في النسخة خلافاً،

(1) حقق هذا الكتاب شيخنا د. أحمد نجيب، وطبعه هذه السنة، وأجاد في ذلك.

(2) التلمساني، أحمد بن محمد المقرئ، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب دار صادر بيروت 1388 هـ تحقيق د. إحسان عباس 1388 هـ: (431/5).

وذكر بعض ذلك الكلام، فاهتديت إلى تمامه، فقلت: يا سيدي معنى ما ذكره أن جزم نقيض بمن الموصولة؛ لشبهها بالشرطية لما تضمنت من معنى الشرط، وإذا كانوا يعاملون الموصول الذي لا يشبه لفظه لفظ الشرط بذلك، فما يشبه لفظ الشرط؛ أولى بتلك المعاملة، فوافق **رحمته** وفرح، وكان الإنصاف طبعه، وعند ذلك أنكر علي جماعة من أهل المجلس، وطالبوني بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط، فقلت: نصهم على دخول الفاء في خبر الموصول في نحو الذي يأتيني؛ فله درهم من ذلك، فنازعوني في ذلك، وكنت حديث عهد بحفظ التسهيل، فقلت: قال ابن مالك فيما يشبه المسألة: وقد يجزم متسبب عن صلة الذي تشبيها بجواب الشرط، وأنشدت من شواهد المسألة قول الشاعر:

(كذلك الذي يبغي على الناس ظالماً تصبه على رغم عواقب ما صنع)

فجاء الشاهد موافقاً للحال، وفي رواية أخرى: فقال ابن عرفة: فأنت إذا ابن مرزوق، قال: نعم، فرحب به، وفي بعض المجاميع أن ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انقضى المجلس⁽¹⁾، ومات بتلمسان سنة 842 هـ⁽²⁾.

محمد بن عبد الله القلشاني: الفقيه العلم العلامة الصالح، والد القاضي أبي العباس أحمد، وعمر القلشانيين؛ كان **رحمته** من أكابر علماء تونس أحد فضلاء أصحاب ابن عرفة، ولي التدريس خلف أبي مهدي عيسى الغبريني بعد وفاته بإشارة منه، قال السخاوي: تولى قضاء الأنكحة بتونس والتدريس بها⁽³⁾.



-
- (1) التلمساني، أحمد بن محمد المقرئ، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب: (432/5).
 (2) انظر ترجمته في الضوء اللامع: 3/384، ونيل الابتهاج: 2/171.
 (3) التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج2، ص: 168.



منهج ابن عرفة الفقهي

كان للبيئة العلمية في تونس والقيروان أثرٌ كبيرٌ في منهج ابن عرفة العلمي، فقد صقلت مواهبه وملكاته العقلية، واستفاد كثيراً من مدرسيه الذين واظب على صحبتهم، فأخذ منهم العلوم اللسانية والعقلية والشرعية، وبرع ابن عرفة، وتميز في ميداني التدريس والتأليف الفقهي، فضلاً عن الفتوى، وفيما يلي الحديث عن ذلك بشيءٍ من التفصيل:

أولاً: منهجه في التدريس:

انتمى ابن عرفة إلى مدرسة تميزت بمنهج علمي متفرد في التدريس، والتي تعرف بمنهج التفقه؛ وهذه الطريقة خلاصة طريقتين في البحث والتأصيل: أولاً: طريقة القرويين والأندلسيين القائمة على المباحثة والمساءلة والنقد والمراجعة، والثانية: الطريقة المشرقية التي أنبت على التحليل والاستنباط وخدمة العلم الواحد بمجموعة من العلوم.

وهذه الطرق إنما ورثت عن متقدمي علماء المذهب؛ إذ كان لهم في تدريس المدونة

اصطلاحان:

الأول: اصطلاح عراقي.

والثاني: اصطلاح قروي.

فالعراقيون جعلوا من مصطلحهم مسائل مدونة كالأساس، وبنو عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات، ومناقشة الألفاظ، ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل، وتحرير الدلائل، ورسم الجدليين، وأهل النظر من الأصوليين.

وأما الاصطلاح القروي؛ فهو البحث على ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب، واختلاف المقالات، مع ما إنضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع من السماع، وافق



ذلك عوامل الإعراب أو خالفها.

ومن العلماء من جمع بين الطريقتين؛ كالقاضي عياض الذي سلك في تنبيهاته مسلكاً جمع فيه بين الطريقتين والمذهبيين.

وتبعاً لذلك فقد تميزت تأليف المشاركة بالإيجاز؛ لتمكنهم من ملكة التصرف في الألفاظ بالاختصار؛ ككتب ابن الحاجب، في فروعها وفي أصوله، والخونجي في المنطق، وغيرهما، وإن كان الغالب على جل أئمة المشاركة الإطناب؛ مثل الغزالي والإمام الفخر، وغيرهما⁽¹⁾.

وأما أهل الأندلس؛ فالغالب عليهم جودة الأسلوب البلاغي في جمال العبارة، وحسن الجمل والتراكيب بانتقاء ألفاظها، وخير مثال لذلك أسلوب القاضي عياض في تأليفه.

ولم يظهر من علماء فاس شيء من التأليف المرتجلة ولا الملخصة، إلا ما كان سبيله النسيج بها على ما هي عليه فقط، كما في تأليف المدوّنة المنسوبة للشيخ أبي الحسن، وهي التي اعتنى بها طلبته، وبنوها على ما قيده عنه من فوائد المجلس.

والعلة في ذلك كما يقول المقرئ: (كون صناعة التعليم، وملكة التلقي، لم تبلغ فاساً، كما هي بمدينة تونس، الذين اتصلت إليهم من الإمام المازري، كما تلقاه عن الشيخ اللخمي، وتلقاها اللخمي عن حذاق القرويين، وانتقلت ملكة هذا التعليم إلى الشيخ ابن عبد السلام، مفتي البلاد الإفريقية وأصقاعها، المشهود له برتب التبريز والإمامة، واستقرت تلك الملكة في تلميذه ابن عرفة رحمته الله⁽²⁾).

برع ابن عرفة في منهجه الجامع بين اصطلاح التدریس عند المالكية، العراقي والقروي، فكان في مجالس درسه يتميز بطريقة تقوم على البحث والتقرير، والتحرير والتعليل، والنقاش؛ إنه منهج يجمع بين المحافظة والتجديد، ولا ريب أن هذا الأسلوب يؤدي بطبيعة الحال إلى وجود تجاوب، وتآلف فكري بينه وبين طلابه.

(1) المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ص: 242.

(2) المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ص: 243.

ويذكر البسيلى في ترجمة ابن عرفة كلاماً في هذا المعنى أورده في «التقييد الكبير»، فقال: (... وهذه الأسولة وأجوبتها وأمثالها مما ذكرنا في كتابنا هذا هو مما كان يقع بين الطلبة في مجلس شيخنا ابن عرفة رحمته الله، أو بينه وبينهم، وذلك مما يدل على علو مرتبته وعظم منقبته؛ ولذلك كان حذاق الطلبة يفضلونه على غيره من مجالس التدريس)⁽¹⁾. وقد صور ابن عرفة منهجه في تدريس العلوم في شعره حيث تبدو أهم ملاحظه فقال:

**إذا لم يكن في مجلس الـدرس نكتة وتقرير إيضاح لمشكل صورة
وعزو غريب النقل أو فتح مقفل أو إشكال أبدته نتيجة فكرة
فدع سعيه وانظر لنفسك واجتهد وإياك تركا فهو أقبح حلة
ويستمع الأبى إلى شعر شيخه فيجيبه شعراً:**

**يميناً بمن أولاك أرفع رتبة وزان بك الدنيا بأكمل زينة
لمجلسك الأعلى كفيل بكلها على حين ما عنها المجالس ولت
فأبقاك من رقاك للخلق رحمة وللدين سيفاً قاطعاً كل فتنة**
ويؤكد الأبى ذلك، كما نقل عنه التنبكتي بقوله: وإني لبارٌّ في قسمي هذا، فلقد كنت أقيد من زوائد إلقاءه، وفوائد إبدائه في دوله الخمس، والتي نقرأ في مجلسه من تفسير وحديث، وثلاثة في التهذيب نحو الورقتين كل يوم مما ليس في الكتب، قدس الله روحه⁽²⁾.

إن ابن عرفة كما يقرر الأبى قد امتاز على المعاصرين من المدرسين بطريقة البحث والحوار وحل المشكلات العميقة، وفك عقد المسائل والألغاز، والتعمق في تحليل النصوص بفهم دقيق يصل به في النهاية إلى استنباط الأحكام.

(1) أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد البسيلى، التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ص: 85.
(2) التنبكتي، نيل الابتهاج: 120/2.

كان منهج ابن عرفة في التدريس يعتمد بشكل أساسي على حصيلته العلمية التي جمعها نتيجة جهد شخصي من جد في التحصيل، ومن العناية الربانية التي أهلتها إلى فهم العلوم.

كما كان ابن عرفة سمحاً في التحوار مع الآخرين خاصة الذين يبدأونه بالعدوأة، فقد أساء الأدب بعض معاصريه، فذم مجلس درس ابن عرفة بشعر، لا يليق كتبه (1)، فأجابه شعراً:

**وما حال من يهجو أخاه بلفظة كذا داكر المروي عند الأئمة
وعلم أصول الفقه والبحث والنظر سوى حال من قد ساء قلب نكتة
فبأء بفسق قاله سيد أتى بذكر وقرآن ووعظ وحكمة
روى مسلم مع شيخه عند قوله سباب لذي الإسلام فسق بحجة
بصغرى وكبرى يتجان فسوقه فبالله أعرض عنه وادفعه بالتي**

إن أسلوب محاوره الطالب، وإتاحة الفرصة، والحرية التامة في التعبير عن آرائه، وإبداء ملاحظاته، والتعقيب على شيخه، وتصويبه أحياناً، يجعل من ذلك الطالب لا محالة عالماً محققاً، ولعمري إن منهج ابن عرفة هو أقصى ما نحتاجه اليوم في تدريس العلوم الشرعية.

(1) قال الرّصاع: ولما قدم الفقيه أبو عبد الله محمد المراكشي الكفيف حضر مجلس الشّرخ الإمام، وعلم الأعلام الذي اعترف له بالحق من أهل الحق من صنغه سيدنا أبو عبد الله محمد بن عرفة، وكان مجلسه معلوماً حسنه شاع فخره في المغارب والمشارك، واعترف له أهل الفضل بأنه لا يبلغه سابق منهم، ولا لاحق فحضر الفقيه المذكور خلف الحلقة، ولم يتكلم بكلام، ولا وصل إلى تمام، فقام من ذلك المجلس المبارك بالإعراض، ونطق بكلمات تدل على الأمراض، فليته لم يتكلم وأنصف وسلم فقال ما يجده عند السؤال:

**أيت دروسهم يوم ما صباحا فإن شئت أستمع بيت القصيده
سمعت به التابح والتعاوي كأنهم الكلاب على الطريده**

شرح حدود ابن عرفة، للرّصاع: (3/ 96)

لذا كان الانتفاع به عظيماً، استفاد منه جماعة من طلابه، قال المقرئ في أزهار الرياض: فكان أصحابه كأصحاب سحنون، أئمة في كل بلد، فمنهم أيضاً من بلغ درجة التأليف، ووقع الاتفاق على إمامته، وتقدمه وسمو رتبته⁽¹⁾.

ثانياً: منهجه في التأليف:

ساد منهج الاختصار قبل عصر ابن عرفة، تلك الطريقة التي برز فيها ابن شاس في الجواهر الثمينة، وابن بشير، وتأثر بها ابن الحاجب في جامع الأمهات، وابن راشد القفصي في اللباب.

ويرى كثير من الباحثين أن هذا المنهج انتقل إلى متأخري علماء المالكية تأثراً وتأسياً بأبي حامد الغزالي في كتابه "الوجيز"، فقد رأى الغزالي أن الجدل غلب على كتابات الفقهاء، فكثرت الأقوال المتناقضة في كتب الفقه، والتي غالبها لا يحتاج إليها الناس؛ بل يحتاجون إلى الأقوال الراجحة؛ لأنهم معنيون بالعمل.

فكتب الغزالي كتابه الوجيز اختصر فيه الفقه الشافعي، اقتصر فيه على أرجح الأقوال تاركاً ما عداه، متبعاً في ذلك أسلوب التقنين، فأعجب كثير من فقهاء المالكية بطريقة الغزالي حيث رأوا تفي بحاجة الناس في معرفة أحكام شرعية واضحة، جازمة فيما يستفتون علماءهم فيها⁽²⁾.

ولكن فقهاء آخرين رأوا أن المنهج الذي سلكه الغزالي، وسار عليه جماعة من العلماء كان خطراً على الفقه؛ لأنه أضاع جانباً مهماً منه، وهو مجال النظر والاجتهاد؛ إذ إن طريقة الاختصار تقتصر على إيراد الأحكام دون عللها وأسبابها مما يعطل الملكة الفقهية، ويؤدي لاحقاً إلى الجمود.

كان الفقيه المالكي ابن رُشد أكبر المعارضين لطريقة الغزالي لما كان بين الرجلين من المناظرة والمنافسة، فألف كتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد؛ رداً على وجيز

(1) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ص: 243.

(2) ابن عاشور، محمد الفاضل: المحاضرات المغربية، مركز النشر الجامعي، تونس 1999 م، ص: 82.

الغزالي⁽¹⁾، وقد تأثر ابن عرفة تأثراً كبيراً به، كما قرر ذلك ابن عاشور، فكان عمله في مختصره؛ رداً على طريقة المختصرات، وانتصاراً لطريقة ابن زُشد في بداية المجتهد. ولكن الفرق بين الكتابين أن ابن زُشد أورد الفروع والأصول، وأسباب الخلاف، والمذاهب، وأشهر الأقوال في كل مذهب، أما ابن عرفة فإنه اقتصر على إيراد الأقوال في المذهب المالكي، وعلى الفروع دون الأصول⁽²⁾.

وكان أساس طريقة ابن عرفة في مختصره هي التوسع في النقل بالرجوع إلى الأقوال كلها حتى المتروك منها، أو المحكوم عليه بالضعف والمرجوحية، هادفاً من وراء ذلك إلى تكوين ملكة التفقه⁽³⁾.

هذا المنهج الجديد يقر أن الراجح هو الراجح، والمفتى به مفتى به؛ ولكن لا مانع مع ذلك من أن ننظر إلى غير الراجح، وإلى غير المفتى به، وأن تناقش الأدلة بين هذا وذاك، لا على سبيل الإفتاء، أو الحكم بتلك الأقوال المتروكة؛ ولكن على معنى أننا نجعل البحث فيها رياضة نظرية فقهية.

إذ المعتمد من مذهب المالكية عدم جواز الإفتاء بالأقوال الضعيفة؛ ولكنها تذكر لفوائد في كتبهم، ذكرها الشيخ الصاوي، وحصرها في ثلاثة أشياء هي: اتساع النظر، ومعرفة مدارك الأقوال، والعمل به في نفسه إذا اقتضت الضرورة ذلك⁽⁴⁾.

وثمرة هذه الطريقة الاتساع في الأقوال، وإحياء منهج البحث بالترجيح والاختيار، وربما احتاجها الفقيه في بعض فتاويه، وقد فعل ابن عرفة ذلك كثيراً، كما نقل عنه تلاميذه كالأبي.

(1) ابن عاشور، محمد الفاضل، المذهب المالكي، محاضرة ألقى في كلية الشريعة بفاس سنة 1966 ضمن كتابه المحاضرات المغربية، ص: 76.

(2) ابن عاشور، محمد الفاضل: المحاضرات المغربية، ص: 86.

(3) المرجع السابق، ص: 87.

(4) فقال: (إن قيل: ما فائدة ذكر الأقوال الضعيفة في كلامهم إذا كان لا يجوز العمل بها ولا الفتوى؟ قلنا: أمور ثلاثة: الأول: اتساع النظر والعلم بأن الراجح المذكور ليس بمتفق عليه، والثاني: معرفة مدارك الأقوال، فلمن له الترجيح ما ضعف لقوة المدرك عنده، والثالث: العمل به في نفسه إذا اقتضت الضرورة ذلك، حاشية الصاوي على الشرح الصغير: (9/ 297).

منهج ابن عرفة في مختصره

بيّن ابن عرفة في خطبة مختصره الفقهي مقصده من تأليف الكتاب، ومنهجه في تأليفه فقال: (فهذا مختصر في الفقه المالكي قصدت فيه جمع ما يحصل بهدي الله تحصيله، ذكر مسائل المذهب نصّاً وقياساً، معزوة أقواله لقائلها أو ناقلها إن جهل، فلا إجمال ولا التباساً⁽¹⁾)، وتعريف ماهيات الحقائق الفقهية الكلية، لما عرض من النقل والتخصيص، واعتبار الحقائق الجعلية، والتنبيه على ما لا عاصم منه من غلط ووهم واهم، وردّ تخريج أو مناقضة بفرق قائم، سهّل ارتقاء قنّتها، وخرق جنتها، والاعتماد على متواتر قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» آجلاً، والاعتصام بنتيجة مقدمتي حال الناظر فيه علماً وديناً عاجلاً، مستشهداً بقول المدوّنة: عَلَى مَنْ عَلَى غَيْرِهَا اعْتَمَدَ، أو غير سبيلها اقتصد، وذاكره لذاته مقررّاً، أو لحاجته لتفسير أو تقييد محرراً، سالكاً في ذلك وسط الإيجاز والاختصار، حرصاً على سرعة الفهم والاستبصار، مستعيناً بالله وعليه متوكلاً، وإياه أسأل أن يجعله لكل خير محصلاً، ولكل فضل متمماً ومكماً⁽²⁾.

وقد جاء مختصره كما وعد، وفي فيه بما قاله، نسجه على أسلوب فريد لم يسبق إليه، من ناحية الجمع والتهذيب وتقرير الأبحاث، مستخدماً فيه القواعد المنطقية؛ ليعرّف بها ماهيات الحقائق الفقهية الكلية، ويمكن من هذه المقدمة، وبعد دراسة الكتاب بيان منهج ابن عرفة في تأليف كتاب المختصر الفقهي، والذي يتمثل في الآتي:

أولاً: جمع أقوال علماء المذهب، واستقراء جميع مسائله بقدر الاستطاعة، ويتوسع في نقل الآراء التي قيلت في كل مسألة.

ثانياً: عزو تلك الأقوال لقائلها، ويتحرى الأمانة والدقة في ذلك.

(1) إن قصد النفي للجنس؛ فالأصل أن تكون (فلا إجمال ولا التباس)، وإذا أراد مجرد النفي؛ فلا بد أن تكون العبارة: (فلا إجمالاً ولا التباساً) أو أنه جاء بها مسجوعة مع (اقتباساً) للجرس الموسيقي، أو ربما عاملها معاملة "قوارير" في الوقف عليها فأطلق، والذي يظهر لي أنه نفي عن مختصره الإجمال، ولم ينف عنه الالتباس وهذا واضح .

(2) انظر أول النص المحقق: 60/1.

ثالثاً: تعريف ماهيات الحقائق الفقهية الكلية.

رابعاً: جودة ترجيح المسائل، وبيان أخطاء من سبقه من المجتهدين.

خامساً: إيراد الأدلة والحجج على كثير من المسائل.

سادساً: الاعتماد على المدونة في الترجيح، وتقديم فتواها على غيرها من الكتب، وهذا أصل من أصول المالكية.

سابعاً: إيراد بعض أقوال المذاهب الفقهية الأخرى؛ على سبيل الإيضاح، وبيان وجه رجحان المذهب عليها، وإذا أردنا بيان ما سبق تفصيلاً فنقول وبالله التوفيق:

أولاً؛ إن ابن عرفة قد ملأ كتابه بالأقوال المتعددة، والآراء المختلفة في المسألة

الواحدة، وحشدها جميعاً في سياق واحد، ومن خلال استقراء الكتاب يتبين للباحث أن ابن عرفة في غالب كتابه يبدأ بذكر الأقوال في المسألة، فيصدرها بالأقوى، ثم ما يليه في القوة، ويختم بأضعفها، وربما ختم في الغالب بذكر علة ترجيحه، وهو في ذلك يرجع إلى الأقوال المتروكة، أو حتى المحكوم عليها بالضعف، أو المرجوحية للنظر من النواحي النقدية التي سبق بيانها، من ذلك نقله في حكم صلاة خسوف القمر: اللخمي، والجلاب: سنة.

ابن بشير، والتلقين: فضيلة، وفيها: ركعتان كنافلة.

ابن الماجشون: كالحسوف أفذاذاً، والمشهور كونها في البيوت، ولا تجمع.

وروى علي: يفزعون للجامع يصلون أفذاذاً، ويكبرون، ويدعون⁽¹⁾.

وقد نقل ابن عرفة آراء كثيرة مشهورة ومهجورة في حكم القنوت في رمضان وغيره: فقال: لا قنوت في النصف الآخر من رمضان، ثم أتبع ذلك بنقل جميع ما جاء عن المالكية، فقال: الباجي: (روى ابن القاسم شدة إنكاره).

الشيخ: قال ابن حبيب: كانوا يقتنون فيه بعد رفع ركوع الوتر، ويجهرن بالدعاء: وقاله مالك.

أبو عمر: روى ابن وهب: إنما ذلك في النصف الآخر منه يلعن الكفرة، ويؤمن

(1) انظر النص المحقق: 410/1.

من خلفه.

وروى المدنيون: يقنت فيه الإمام، ويؤمن من خلفه.

وروى ابن نافع: إن شاء فعل، أو ترك.

الباجي: يختص القنوت عند مالك بالصبح.

وروى علي: وفي وتر النصف الآخر من رمضان.

قُلْتُ: نقله عن رواية علي خلاف نقل الشيخ عنه، ونقله عن ابن نافع خلاف نقل

أبي عمر عنه(1).

وهذا التوسع من ابن عرفة في عرض الآراء ليس مجرداً عن أدلتها وتعليقاتها؛ بل

كثيراً ما يذكر تلك الأقوال مقترنة بعلتها، ووجه الاستدلال عليها، ومدى قوتها، ومن

ذلك ما ذكره في بحثه الرائع حول حكم الاستخلاف، فقال: (ولو ابتداءً صلواته حين

أخرج خليفته أعادوا، وإن لم يتبعوه.

يحيى بن عمر: لا يجوز تأخير الخليفة لأحد.

ابن رُشد: هذا في رجوعه عليه السلام من صلحه بين بني عمرو بن عوف، ومعناه: أنه

تقدم الناس مؤتماً بأبي بكر، ولو صح كونه تقدم إماماً كان خاصاً به، أو منسوخاً بفعله

في مرضه؛ حيث جاء وصلى مؤتماً بأبي بكر، وقول ابن القاسم بصحتها رعي لقول

العراقيين بالبناء في الحدث، ومقتضى المذهب بطلانها عليه؛ لأنه بحدثه؛ بطلت صلواته

فصار مبتدئاً لها من وسطها وعليهم؛ لأنهم أحرموا قبله إلا على مذهب عدم الارتباط،

وهذا على ظاهر نص السماع أنه أحرم بعد إخراج خليفته، ولو تأول متأول أنه قبله؛

صح جواب ابن القاسم على تأويله وهو بعيد، وكذا لو حمل الحديث على أنه عليه السلام أحرم

قبل تقديمه؛ صح معنى الحديث، وبناء المذهب عليه.

ثم وجه الخلاف في المذهب بقوله: قوله: لو تُؤول أنه أحرم خلف خليفته قبل

إحرامه؛ صح جواب ابن القاسم مشكل؛ بل هو التزام لإمامته، وكذا قوله: لو حمل

الحديث... إلخ، وقصّر ابن عبد السلام الخلاف على الإمام الراعي الباني وهم

(1) انظر النص المحقق: 416/1.

وقصور⁽¹⁾.

فما أروع هذا البحث، ونقل الأقوال وتوجيهها، ومعرفة أدلتها ومبعث كل قول، وسيجد القارئ بين دفتي الكتاب المزيد من هذه الأمثلة، فعلى سبيل المثال ما جاء حول حكم صوم الستة من شوال وصوم يوم الجمعة.

أما التوثيق والتحري والدقة في النقل؛ فقد أتقنه ابن عرفة غاية الإتقان؛ وهو ظاهرة سائدة في جميع مؤلفاته التفسيرية والعقدية والفقهية، ومن أمانته أنه يتوقف عندما لا يعثر على المصدر الأصلي للعبارة المنقولة بقوله: (لا اعرفه)؛ كنقله أقوال المذهب حول ما قدم به مستأمن من مال مسلم، فقال: وقول ابن عبد السلام: حُكِيَ عن أحمد بن خالد مثل قول ابن شعبان لا أعرفه؛ إنما أعرف ما يقتضيه في سماع يحيى ابن القاسم، وهو قوله: كل من صولح من عدو على هدية أو أداء جزية⁽²⁾.

وفي موضع آخر في باب النكاح: قول ابن الحاجب: تزويج السلطان مع المجر كأبعد مع أقرب لا كمساوٍ، وعلى الأشهر: (لا أعرفه)؛ بل نصوصهم أنه معه كغيره معه⁽³⁾.

ومن أمانته العلمية: أنه يوثق الآراء بذكر قائلها، وكثيراً ما يصرح بذكر المصادر التي نقل عنها، وأبرز تلك المصادر هي:

1. المدوّنة: وهي التي عليها التعويل، كما ذكر في مقدمة كتابه، ويشير لها بقوله: (وفيها).

2. الواضحة، لابن حبيب.

3. مختصر ابن عبدالحكم.

4. نوازل محمد ابن سحنون.

(1) انظر النص المحقق: 348/1.

(2) انظر النص المحقق: 165/3.

(3) انظر النص المحقق: 224/3.

5. النوادر والزيادات، لابن أبي زيد القيرواني، وكذا الرسالة، واختصاره للمدونة.

6. تهذيب المدونة، للبراذعي.

7. الجامع، لابن يونس القيرواني.

8. التبصرة، للإمام اللخمي، والكافي، لابن عبد البر.

9. ومنتخب الأحكام، لابن أبي زَمَيْن.

10. المبسوط، للقاضي إسماعيل ابن إسحاق.

11. وشرح مختصر ابن عبد الحكم، للأبهري.

12. التلقين، للقاضي عبد الوهاب البغدادي.

13. الزاهي، لابن شعبان.

14. شرح التلقين والمعلم لفوائد مسلم، للمازري.

15. والتنبيه على مبادئ التوجيه، لابن بشير.

16. والمقدمات الممهדות، والبيان والتحصيل، لابن رُشد.

17. والتنبيهات المستنبطة، للقاضي عياض.

18. والجواهر الثمينة، لابن شاس.

19. جامع الأمهات، لابن الحاجب.

20. الذخيرة، للقرافي.

21. السليمانية، وسالم ابن سليمان الكندي.

22. ولب الباب، لابن رُشد القفصي.

وغير ذلك من كتب الحديث المعروفة؛ كالموطأ، والصحيحين وسنن أبي داود، والنسائي وغيرها.

وقد رجح ابن عرفة كثيراً من الأقوال، وذكر عللاً لذلك، وله تأويلات لكثير من أقوال الإمام مالك لم يسبق إليها؛ وهذا يجعله من طبقة مجتهدي المذهب لا مجتهدي الفتوى فحسب؛ من ذلك تأوله لكراهة مالك بقراءة سورة يس عند رأس الميت، أن



ذلك إذا اعتقد القارئ سنيته، فإذا لم يعتقد؛ زالت الكراهة، ولا بأس بها فقال: (ولا بأس عند رأسه بقراءة القرآن: ﴿يَسَّ﴾ أو غيرها، وإنما كرهه مالك استثناءً⁽¹⁾.

وقد شاع في المختصر الفقهي استعمال المنطق كثيراً الاستنباطات الفقهية، فإنك

ترى في المختصر العديد من هذه الاستعمالات المنطقية من ذلك:

أولاً: توضيح العلاقة بين المسائل الفقهية؛ كبيان المنافاة، أو الترادف، والتلازم بين أمرين⁽²⁾، **ومن أمثلة ذلك:** بيان منافاة الصلاة للكفر، ومنافاة العتق له من حيث إن الأولى أعم من الثانية؛ لتبرير جواز عتق كافر في الكفارة دون جواز الصلاة عليه، فقال ابن عرفة في ذلك: (وقد يفرق بعموم منافاة الصلاة الكفر ضرورة منافاتها له بنوعها وجنسها، بخلاف منافاته العتق إياه بنوع كونه كفارة لا بجنسه ضرورة صحة عتق الكافر؛ بل قيل: إنه أفضل من عتق المسلم إذا كان أكثر ثمناً)⁽³⁾.

ومنه أيضاً: بيان اختلاف الجمالة عن شغل الذمة بالضمان؛ رفعاً للتباس من ظن أنها مترادفان بناء على ما بينهما من التلازم؛ إذ أنه كلما ثبت الالتزام بالدين، أو بطلب صاحب الحق؛ ثبت شغل الذمة، وكلما وقع شغل الذمة بالضمان؛ ثبت الالتزام، فبين ابن عرفة أن التلازم بين أمرين لا يدل على الترادف؛ لجواز الاختلاف في ما صدق المتلازمين، وكذا في هذين المسألتين فقال:

الجمالة: التزام دين لا يسقطه، أو طلب من هو عليه لمن هو له، وقول ابن الحاجب تابعاً للقاضي: الضمان شغل ذمة أخرى بالحق لا يتناولها؛ لأن شغل ذمة أخرى؛ إنما هو لازم لها، لا نفسها؛ لأنها مكتسبة، والشغل حكم غير مكتسب ينشأ عن مكتسب كالملك مع البيع. فتأمله⁽⁴⁾.

(1) انظر النص المحقق: 432/1.

(2) عبد المجيد النجار، الصلة بين المنطق والفقه المالكي كما انتهت عند ابن عرفة، أحد بحوث ملتقى ابن عرفة، ص: 181.

(3) انظر النص المحقق: 404/2.

(4) انظر النص المحقق: 500/6.

ثانياً: ومن استخدامات المنطق في المختصر الفقهي **تعيين اعتراضات على بعض المسائل أو متوقع حصولها، ثم إبطال تلك الاعتراضات، وإثبات صحة الأحكام المعترض عليها،** ومثال هذا كثير في المختصر، وإليك بعض هذه الأمثلة:

أ- يناقش ابن عرفة رأياً لبعض الفقهاء مفاده: أن الغرر اليسير غير المقصود لا يفسد البيع، وعندما أراد أن يثبت عكس ذلك، وأنه يفسد البيع مطلقاً ضبطه كالتالي: (قلت: حاصل الأول: أن الغرر كل ما كان يسيراً غير مقصود بوجه لم يمنع صحة البيع، وبين الملازمة بأن مانعية الغرر إنما هي لما يؤدي إليه من مخاصمة المتبايعين، ويُردّ بأنه دعوى إخراج صورة النزاع من عام شامل لها بمفهوم علة مستنبطة، ومثل هذا لا يوجب إشكالاً؛ لأن: «العموم مقدم على مفهوم العلة المستنبطة»؛ وإنما الخلاف في مفهوم منطوق، أو علة منصوص عليها، وما بين فيه الملازمة غير صحيح؛ لأن مانعية الغرر؛ إنما هي لاشتغال الغرر على حكمة هي عجز البائع عن تسليم المبيع لمبتاعه حسبما قرره الفخر في المحصول، وغيره من الأصوليين، ولقد كان شيخنا أبو عبد الله بن الحباب ينكث على متفقهة وقته، ويقول: يقرؤون كتاب بيع الغرر، ويعلمون به، ولا يعرفون وجه علتة، وكيف يتوهم كون حكمة علة الغرر المخاصمة، وأكثر صورها عرية عنها؛ كبيع الآبق والتمر قبل بدو صلاحه على أن ضمانه من مبتاعه إلى غير ذلك من صور الغرر)⁽¹⁾.

ثالثاً: رد الاعتراضات الواردة في حكم شرعي بالقدح في ذاته، أو في انطباقه على ذلك الحكم، فعندما قرر ابن عرفة إلى أن بعض أنواع النكاح الفاسد تترتب عليه آثار النكاح الصحيح كالإرث، ورد عليه اعتراض بأن (معنى الفساد سلب الأحكام، وتختلف الثمرات)، فيرد ابن عرفة رداً مستخدماً فيه أدلة المعقول والمنقول، ويقرر صحة ما ذهب إليه مستفيداً من قواعد المذهب وأصوله، وبتخريج الأقوال تخريجاً متقناً، وبسط جواب ذلك مطولاً، فكان بحثاً ممتعاً بحق يرجع إليه في هذا الكتاب⁽²⁾.

(1) انظر النص المحقق: 289/5.

(2) انظر النص المحقق: 40/4.

وأهم جوانب استعمال ابن عرفة المنطق كغيره من فقهاء المالكية؛ هي ضبط المفاهيم، والمقارنة بين الأقوال، وهذا أهم مبادئ الاختصار الذي برع فيه. وأما منهجه في الترجيح بين الآراء؛ فإن ابن عرفة ما يرجع الآراء التي يختارها إلى قواعد أصولية، أو مضامين أصلية تفرعت عنها تلك الآراء، أو دلالات نصية شرعية، أو مقولات عن أئمة المذهب؛ ليبين العلة الجامعة بين الأصل والفرع، أو القرينة المصاحبة للحكم في المعنى المحكوم به، والمعنى المحكوم عليه، وإذا رد رأياً كثيراً ما ينفي المشابهة بينه وبين مبناه الذي ادعاه مستنطبه أو ناقله (1).

وهذه بعض الشواهد من مختصره: ففي الاستدلال على صحة صلاة المريض العاجز عن الأركان غير النية يقول ابن عرفة: (لا نص في فاقد غير النية، وللشافعية يجب قصدها، وللحنفي سقوطها والأول أحوط) - قصورٌ لقول ابن رُشد: في سقوطها عن الغريق العاجز عن الإيماء وغيره، وقضائها رواية معن عن مالك في المكتوف كذلك، وقوله فيها: من تحت الهدم لا يستطيع الصلاة يقضي (2).

ويقول في ترجيح بطلان صلاة الإمام والمؤمنين إذا صلوا خامسة بسهوه وعمده (3): (ولو أجمعوا فخالفهم لشكه؛ بطلت عليه وعليهم؛ لوجوب رجوعه عن شكه ليقينهم) (4).

ويقول في تعليل وجوب غسل النفساء التي ولدت بغير دم: (وسمع أشهب من ولدت دون دم اغتسلت) (5)، وهذا الحكم مخالف للعلة الظاهرة التي من أجلها شرع الغسل للحائض والنفساء؛ وهو خروج الدم؛ ولذلك قال: (هذا استحسان؛ لأنه للدم

(1) فاندي، سعيد سالم، والطوير، حسن مسعود، المختصر الفقهي لابن عرفة دراسة وتحقيق، دار المدار الإسلامي بيروت لبنان، ط1، 2003م، ص: 30.

(2) انظر النص المحقق: 252/1.

(3) فاندي، سعيد سالم، والطوير، حسن مسعود، المختصر الفقهي لابن عرفة، ص: 32.

(4) انظر النص المحقق: 288/1.

(5) انظر النص المحقق: 152/1.

لا للولد(1)، فرده الى قاعدة الاستحسان(2)؛ وهو بناء الحكم على علة خفية لا على علته الظاهرة.

وفي منعه قياس نجاسة الماء الذي وقعت فيه فأرة ميتة على الزيت يقول ابن الماجشون: في الماء يرد بأن دلالة الشيء على حدوث أمر أضعف منها على بقاءه؛ لقوته بالاستصحاب، وبأن الماء يدفع عن نفسه(3)، ومن رده لآراء تخالف ما تقتضيه المعاني الشرعية المنقولة عن الأصل اللغوي ما جاء في صدر المختصر في معنى الطهارة: (وقول المازري وغيره: الطهارة إزالة النجس، أو ما في معناه بالماء أو ما في معناه؛ إنها يتناول التطهير وهي غيره؛ لثبوتها دونه فيما لم يتنجس، وفي المطهر بعد الإزالة)(4).

ويرد ابن عرفة ما رجحه المازري باختيار رواية في المذهب بترك تعيين قراءة سورة معينة في الشفع والوتر بقوله: (إما باعتبار المذهب في رواية التعيين أولى لما تقرر من دليل رد المطلق للمقيد)(5).

وله تأويلات على أقوال الإمام مالك، فيثبت لها علة بخلاف ما قرره الفقهاء، أو بخلاف ما يتبادر الى الذهن؛ ففي حكم قراءة سورة يس على المحتضر: (ولا بأس عند رأسه بقراءة القرآن: ﴿يس﴾ أو غيرها، وإنما كرهه مالك استئناً)(6)؛ أي: بسبب الكراهة اعتقاد القارئ بأن ذلك سنة، فإن زال ذلك السبب؛ فلا بأس بتلك القراءة، وبمثل ذلك أجاب ابن عرفة عن الفتوى التي وردت اليه من قرناطة في حكم الدعاء الجامع بعد الصلوات؛ حيث جوز ابن عرفة ذلك بشرط ألا يعتقد الداعي أن ذلك من سنن الصلاة أو من فضائلها.

ويستعمل ابن عرفة المنطق كثيراً في تقرير الأقوال وترجيحها؛ ففي ترجيح أن

(1) انظر النص المحقق: 152/1.

(2) فاندي، سعيد سالم، والطوير، حسن مسعود، المختصر الفقهي لابن عرفة، ص: 32.

(3) انظر النص المحقق: 99/1.

(4) انظر النص المحقق: 67/1.

(5) انظر النص المحقق: 420/1.

(6) انظر النص المحقق: 532/1.

التيتم يرفع مانع الصلاة فقط دون رفع الحدث المانع يقول ابن عرفة: (الاستباحة إنما تثبت بالوضوء أو التيمم، والمركب من جزئيهما غيرهما، ولا يلزم من سببية كل سببية جزئية)، وكقوله: فلا يلزم ثبوت نقيض الحكم في الاصل عند قائله ثبوته في الفرع؛ ذكر ذلك في إبطال تخريج ابن عبدوس بطلان صلاة الجمعة على المأمومين بهروب الإمام على بطلانها عليه بهروبهم، والأمثلة على استخدام ابن عرفة للمنطق ماثورة في مختصره، وقد التزم بالحدود المنطقية التصورية في التعريفات التي صدر بها أبوابه، وكان لها أثر في ذبوع آراء ابن عرفة، يقول عبدالمجيد النجار في مقالة بعنوان "الصلة بين المنطق والفقه المالكي كما انتهت عند ابن عرفة": (وقد كان ابن عرفة الوردغمي من التبريز في الفقه المالكي وفي المنطق معاً؛ بحيث يمثل موضوعاً صالحاً؛ لأن يلتبس فيه وجه الصلة بين الفقه المالكي وبين المنطق)⁽¹⁾.

واختصر الإمام ابن عرفة أسماء بعض الاعلام الذين نقل عنهم؛ تجنباً للإطالة، وإليك بيان من اختصرهم في مصنفه:

فإذا قال: **القرينان**؛ فهما أشهب وابن نافع؛ لأن العُتبيّ قرنها في السماع بسبب أن ابن نافع كان أعمى، فكان أشهب هو الذي يكتب له على ما ذكر عياض **رحمته**.
وحيث قال: الأخوان؛ مُطَرَّف وابن الماجشون؛ لكثرة توافقهما ومصاحبتيهما في كتب الفقه بالذکر.

وإذا ذكر **الصقلي**؛ فالمراد به ابن يونس.

وإذا قال: **الشيخ**؛ فمراده: ابن أبي زيد القيرواني.

وإذا قال: **الإمام**؛ فهو المازري.

وأما **محمد**؛ ابن المواز.

وحيث قال: **القاضي**؛ فهو عبد الوهاب بن نصر البغدادي.

(1) عبد المجيد النجار، الصلة بين المنطق والفقه المالكي كما انتهت عند ابن عرفة، ملتقى الإمام ابن عرفة بمدنين، وزارة الشؤون الثقافية تونس، 1976 م، ص: 181.

وله بعض الاختصارات الأخرى في تعداد المسائل وأحكامها وإليك بيانها:

ومن اصطلاحه - كما قيل - أنه يصدر بالمشهور تارة، وتارة يُصدّر بالإثبات، وتارة يصدر بالنفي، وعلامة ذلك إذا قال: «وفي كونه كذا»؛ فالمشهور في المسألة الإثبات، وإذا قال: «وفي منع» في أول كلامه؛ فالمشهور المنع؛ ولذلك ترى المتأخرين يقولون: وصدّر به ابن عرفة (1).

فإنه قال في باب العدد من مختصره ما نصه: ومن شهدت بينة بطلاقه؛ فعدته من يوم تاريخها إن لم ينكرها، وإلا ففي كونه من يوم تاريخها إن اتحد، ومن آخره إن تعدد، أو من يوم الحكم مطلقاً؛ طريقتاً عياض - عن المذهب - مع الصقلي عن الشيخ وابن محرز (2). اهـ.

فعزو هذه الأقوال: أن القاضي عياضاً ذكر فيها طريقتين في المذهب، وأن الصقلي - وهو ابن يونس - نقل عن الشيخ - يعني: أبا محمد ابن أبي زيد في اصطلاحه - أن العدة من تاريخ البينة، وقال: إن اتحدت الشهادة. وقال ابن محرز: إنها من يوم الحكم مطلقاً.

وقوله: «طريقاً عياض عن المذهب»؛ هو نص عياض في تنبيهاته قال: والذي يأتي على مذهبنا وأصولنا أن العدة من يوم أرّخ الشاهد الثاني الذي يحكم عليه في ذلك بتطبيقه، وإن أرخوا كلهم وقتاً واحداً؛ فمنه العدة (3).

ومن اصطلاحه مما وقفت عليه في مخطوطة الخزانة الملكية (4) بخط أحد طلابه ممن نسخ المختصر أنه قال: ومن اصطلاح الإمام ابن عرفة في مختصره الفقهي في عزو الأقوال: أنه يأتي بها معطوفة، ثم يتبعها بقائلها معزوة لهم على طريقة اللف والنشر، الأول من القائلين يرجع إلى الأول من الأقوال، والثاني للثاني، فإذا قال بالقول الواحد

(1) العلامة ابن السالك، عون المحتسب فيما يعتمد من كتب المذهب، ص: 104.

(2) انظر النص المحقق: 415/4.

(3) العلامة ابن السالك، عون المحتسب فيما يعتمد من كتب المذهب، ص: 105.

(4) وهي برقم: 4732.



متعدد؛ جاء بلفظ "مع" لتوافق من قبلها مع من بعدها، ولا يزال المعطوف على المخفوض بها مشتركاً معه وموافقاً له حتى ياتي بلفظة "مع" ثانية، فتكون هي العلامة على الفصل وينقطع ما قبل "مع" عما تقدمه، ويتوافق مع مخفوضها ويشترك معه، ولا يزال كذلك حتى ياتي بلفظة "مع" فاصلة أيضاً؛ فيكون الحكم ما ذكر، ولا يبقى من القائلين للأقوال المشار إليها إلا ما لا يفني بعدد الأقوال؛ فتكون الأقوال معزوة لهم، وينقطعون من التشريك مع المخفوض؛ ومثال ذلك إذا قال مثلاً في مسألة: في جوازها ومنعها، ثالثها: الكراهة، ورابعها: الوقف، وخامسها: كذا الأول لابن القاسم مع أشهب، وسحنون، وابن حبيب، وابن وهب، وأصْبَغ مع مُطَرِّف، وابن نافع وابن الماجشون، وأبو الفرج؛ فالأول وهو الجواز قال به: ابن القاسم، وأشهب، وسحنون، وابن حبيب، وابن وهب، والثاني: وهو المنع قال به أصْبَغ ومُطَرِّف، والثالث: قال به ابن نافع، والرابع: قال به ابن الماجشون، والخامس: قال به أبو الفرج⁽¹⁾.

ثناء العلماء على المختصر:

قال العلامة ابن السالك في «عون المحتسب»: (ومختصره هذا هو حقيقة مختصر مذهب مالك، فلعل من اتسع نظره وتحصيله إذا طالعه كله لا يبقى عليه من المذهب إلا ما لا حاجة له فيه؛ لأنه اختصر المذهب كله)⁽²⁾.

قول: ولقد أحسن بعض الأكابر من طلبة ابن عرفة رحمته الله؛ إذ يقول في مدح مختصره المذكور:

إذا ما شئت أن تدعى إماماً فخذ في درس مختصر الإمام
تنال به السعادة والمعالي وتضحى ظاهراً بين الأنام
كتاب قد حوى من كل علمٍ كبستان سقي غيث الغمام
فدع عنك السامة وادرسنه وعن عينيك دع طيب المنام

(1) انظر مخطوط الخزانة الملكية: 4732.

(2) العلامة ابن السالك، عون المحتسب فيما يعتمد من كتب المذهب، ص: 103.

وحل بـدره جيد المعالي تفز بالخلد على أعلي مقام⁽¹⁾

الماخذ على مختصر ابن عرفة:

أتت بعض عبارات المختصر غامضة المعنى لشدة الاختصار، ودخول المنطق بصورة كبيرة في أسلوب ابن عرفة، وكان تداخل الأقوال، وصعوبة التمييز فيما بينها بحيث يجد القارئ مشقة كبيرة، ويذل جهداً في فهمها ونسبتها سبباً لإعراض كثير من طلاب العلم عن المختصر، واستبداله بكتب أخرى ينهلوا منها الأحكام الفقهية، وقد أدرك ابن عرفة هذه المسألة بعد أن مضى في كتابة المختصر، وقطع فيه شوطاً، لاسيما أن تلاميذه، وبعض أقرانه صرح له بذلك.

روى المقرئ في أزهار الرياض: أن القباب لما حج اجتمع في تونس بابن عرفة، فأوقفه على ما كتب من مختصره الفرعي، وقد كان شرع في تأليفه، فقال له القباب: ما صنعت شيئاً.

فقال له ابن عرفة: ولم؟

قال: لأنه لا يفهمه المبتدئ، ولا يحتاج إليه المنتهي، فتغير وجه ابن عرفة، ثم ألقى عليه مسائل أجابه عنها القباب⁽²⁾، ويقال: إن كلامه هو الحامل لابن عرفة على أن بسط العبارة في أواخر المختصر.

وقد تعقب الفقيه المحقق محمد بن أبي القاسم بن حمد المشدالي ت 866 هـ ما صرح ابن عرفة بعدم وجوده، واستدرك عليه مسائل؛ في تأليف اختصر فيه أبحاثه المتعلقة بكلام ابن شاس وابن الحاجب، وشرحه مع زيادة شيء يسير في بعض المواضع مما لم يطلع عليه ابن عرفة⁽³⁾.

ونسب لعيسى بن علال الكتامي المصمودي الفاسي المتوفى سنة 823 هـ تعليق على مختصر ابن عرفة يبين فيه كثيراً من غوامضه.

(1) المقرئ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ص: 247.

(2) المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: 247.

(3) البسيلي، نكت وتنبهات في تفسير القرآن المجيد: 86/1.

وقد شرح أبو العباس البسيبي تلميذ ابن عرفة ذلك المختصر، ثم اختصر شرحه في كتاب حاذى به مؤلف شيخه.

ومن شرح هذا الكتاب: أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن غازي في كتاب سماه "إتحاف ذوي الذكاء والمعرفة بتكميل تقييد أبي الحسن وتحليل تعقيد ابن عرفة"، ولكن الكتاب تعقب بقول بعض معاصريه الفاسيين: «أما التكميل؛ فقد كمله، وأما التعقيد فما حلله»⁽¹⁾.

أثر ابن عرفة في الفقه المالكي:

كانت شخصية ابن عرفة فريدة كمنهجه الفقهي الذي سبق بيانه، شخصية جامعة بين العلم في أعلى مراتبه، والتقوى التي بلغ فيها أقصى الغايات، سار فيها على نهج الصالحين، وتأسى بالسلف الماضيين، وهذا مما جعله شخصية مؤثرة جداً، فقد قيل: تسبق أنوار الحكماء أقوالهم؛ فحيث صار التنوير؛ وصل التعبير⁽²⁾، ولم تكن مؤلفاته وعلى رأسها المختصر الفقهي نتاج معلومات محفوظة يرددها، ويلقيها على الطلاب؛ بل كانت خلاصة دروس وتقريرات ومحاورات امتدت على مدى نصف قرن منذ بدء التدريس إلى أن توفي⁽³⁾.

أسس ابن عرفة لمنهج التفقه بأن حث طلابه عليه؛ بل ومرنهم عملياً بالحوار والمناقشة التي كانت سمة مجلس درسه، فكان ينقد بحضرة طلابه الآراء الفقهية، ويعيد النظر في قيمتها العلمية، ويبين مدارك الأقوال، ويوجه كثيراً منها، ويبين العلل،

(1) التنبكتي، نيل الابتهاج: 272/2.

(2) وقال الشرنوبلي في شرحها يعني: أن العارفين بالله تعالى المعبر عنهم بالحكماء إذا أرادوا إرشاد عباد الله توجهوا إلى الله بقلوبهم في هدايتهم واستعدادهم لقبول ما يرد عليهم من أقوالهم فيجيبهم لذلك، فيخرج حيثئذ من قلوبهم أنوار ناشئة من نور سرائرهم تسبق أقوالهم، فحيث صار أي حصل التنوير في قلوب السامعين وصل التعبير، فينتفعون بأقوالهم أتم انتفاع، شرح الحكم العطائية، ص: 126.

(3) فاندي، سعيد سالم، والطوير، حسن مسعود، المختصر الفقهي، لابن عرفة دراسة وتحقيق، دار المدار الإسلامي بيروت لبنان، ط 1، 2003م، ص: 41.

ويتأول أقوال الإمام مالك نفسه.

وساعد على ذلك أن ابن عرفة قد تولى الإفتاء فترة طويلة، فسمى هذه الملكة في تلاميذه، وحث طلابه على التصدي لها، فتعلموا على يديه أصول الإفتاء، وكيفية تنزيل الأحكام على واقع الحياة المعاصرة على مختلف البيئات؛ حيث كانت المسائل ترد عليه من المشرق والمغرب.

وأصل ابن عرفة لمنهج التفقه بأن ألف المختصر الفقهي، فخرج به عن نطاق الالتزام الذي ضرب على المذهب بمتابعة طريقة اختصار شروحات المدونة؛ كابن الحاجب، وخليل بن إسحق، فبعث في المختصر الأنظار المهجورة، والأقوال المتروكة منذ القرن السادس، ووضعها مع الأقوال المصطلح بين الفقهاء على الأخذ بها تشهيراً وترجيحاً واختياراً، كل ذلك على بساط واحد من النقد والتحقيق والمقارنة، والاستدلال⁽¹⁾.

حقق ابن عرفة في مختصره مناط هذه الأقوال، فبين مدى ارتباطها بما التبست به من أحوال، من ظروف واقعية، أو تطبيقات لقواعد أو أصول كلية؛ ليكون ذلك عوناً للناظر المتفقه فيه، وكمل ذلك بيان الحدود الفقهية؛ ليكتمل تصور الدارس عن ماهية الحقائق الشرعية، ولما كانت هذه القواعد والأبحاث النظرية، صالحة لأن تطبق في عصور مختلفة؛ حيث لم تنزل على الأحداث والقضايا الطارئة بشكل جزئي؛ لذا فإنها لم تعتبر فقهاً؛ بل اعتبرت تفقهاً، وهو منهج سار فيه ابن عرفة على سلفه ابن رُشد فوضحه وبين أسسه.

وقد طبق تلاميذ ابن عرفة الذين درسوا على يديه منهجه، بأن جعلوا هذا التفقه فقهاً؛ حيث جعلوا لطريقة ابن عرفة أثراً عملياً؛ إذ أدخلوا في فتاويهم وأقضيتهم الطريقة المتميزة التي كان ابن عرفة يسير عليها، فتجد البرزلي وهو من أميز أصحابه، والذي قال في فتاويه: إنه لازم ابن عرفة نحو أربعين عاماً، فأخذ هديه وعلمه

(1) ابن عاشور، محمد الفاضل، أعلام الفكر وأركان النهضة بالمغرب العربي، ص: 103.

وطريقته⁽¹⁾، وينقل عنه كثيراً من النوازل كانت ترد علي ابن عرفة.

يقول البرزلي: (أفتى شيخنا في هري زيتون وجد فيه فأرة ميتة أنه نجس كله لا يقبل التطهير)، ثم يعلل فتوى شيخه بقوله: (لأن الزيتون ليس يحف كل الجفاف)، وينقل عن ابن عرفة ما يفيد الفتوى بمخالفة المشهور مراعاة بأحوال العصر، (وكان شيخنا الإمام يقول: أن الفتيا بتونس منذ مائة عام بجواز أكلها (أي: الشاة المغلصمة التي وقعت العقدة عند ذبحها جهة البدن)؛ لقوة الخلاف، وكان يفتي استحساناً إن كان صاحبها فقيراً أو زمن مسغبة؛ جاز أكلها، وإن كان غنياً؛ تصدق بها)، كما كان يرجع الى مقولات شيخه في تبين صحة بعض ما يفعله الناس في عصره من مثل ذبح الشاة بغير السكين.

(قال شيخنا: آلة الذبح ما يقطع اللحم بضغطه لأسفل، فيخرج المنشار والمنجل المنقوش⁽²⁾).

ويتأثر الأبى بمختصر شيخه ابن عرفة في كتابه إكمال الإكمال في شرح صحيح مسلم، وذلك بسريان تلك الروح النقدية التي جعلته يخالف شيخه في قضية تنازع فيها ابن عرفة مع الشيخ الغرياتي أبي عبد الله في القبطان الذي سب نصرانياً، وقال له: أنا عدوك وعدو نبيك، فأفتى الغرياتي بكفره واستتابته، وأفتى ابن عرفة بأنه منتقص؛ أي: أنه كافر لا يمكن استتابته، فمال الأبى إلى رأي الغرياتي محتجاً بقوله لشيخه ابن عرفة: (لم يظهر لي أن الرجل منتقص، ولا وجه للجزئيات التي احتج بها عليه)⁽³⁾.

ونقل الأبى عن مختصر ابن عرفة كثيراً من التعريفات؛ كتعريف الطهارة والحج، واللعان والزنا، والجهاد والحراية، وينقل عنه كثيراً من الفتاوى، مثل إفتائه بأن كل من

(1) التنبكتي، نيل الابتهاج، ج2، ص: 19.

(2) فاندي، سعيد سالم، والطوير، حسن مسعود، المختصر الفقهي، لابن عرفة دراسة وتحقيق، ص: 42.

(3) فاندي، سعيد سالم، والطوير، حسن مسعود، المختصر الفقهي، لابن عرفة دراسة وتحقيق، دار المدار الإسلامي بيروت لبنان، ط1، 2003م، ص: 43.

وُلِّي إمارة أو خطة من غير أهلها، فقد حابى في أحكام الله (1).

وقد تأثر ابن ناجي به في شرحه على المدونة، وفي شرحه أيضاً على مختصر ابن الحاجب، كما ظهر منهج ابن عرفة، وأثر في أحكام ابن ناجي التي بنى عليها كثير ممن أتى بعده من مخالفة العمل القضائي للراجح أو المشهور، ودرج عليها الشيخ يحيى المغيلي في كتابه المشهور «الدرر المكنونة في نوازل مزونة».

وقد سار أبو العباس الونشريسي في معياره على خطى ابن عرفة، ورحج كثيراً من فتاويه، واعتمد أقواله؛ كحجة في تنزيلها على النوازل والأقضية، ملتزماً بشروط الإفتاء التي وضعها في باب القضاء، ناقلاً عنه كثيراً من الأقوال، ومرجحاً لها على غيرها.

قال ابن عاشور عن هذه الطريقة: كونت إتجاهاً جديداً قد تكون الأحداث ألجأت إليه ورجحته، وبينت أن ما بني عليه الترجيح أو الاختيار إنما كان مستنداً إلى أمور من الإرهاق أصبحت غير متجلية بتبدل الأحوال، ولا سيما في الانقلابات الاجتماعية الهائلة التي ظهرت في القرن الثامن والتاسع مما لا سبيل إلى بسطه.

ثم قال: هذه الطريقة قد ظهر أثرها في مدينة فاس، وعلل ذلك بأن الانقلابات الاجتماعية التي مست العالم الإسلامي كانت متجلية في مدينة فاس بصورة خاصة، تمثل هذا التأثير فيما يعرف بالعمل الفاسي الذي يمثل الحركة التطويرية التي دخلت المذهب المالكي، وتتابع بعد ذلك الكتب التي بدأت تستند إلى إفتاء المفتين، وإلى تصرفات القضاة، فتجعل ذلك قانوناً ملزماً، ينبغي أن تكمل به الأوضاع الفقهية القديمة، ثم جاء نظم العمل الفاسي للشيخ عبد الرحمن الفاسي، وظهر مثل ذلك في مراكز أخرى للمذهب المالكي، لا سيما تونس التي منها بدأ، تجل ذلك في رسائل الشيخ قاسم عظم وتحقيقاته، الذي اتجه فيها إلى الأخذ بالفتوى، أو الإشارة على القضاة في الحكم بأن يأخذوا بغير ما صرح في الكتب بأنه الذي عليه القضاء، أو عليه الفتوى.

وعلى ذلك بنيت المنظومات الخاصة بالعمل التونسي من ذلك كتاب لقط الدرر في

(1) البرزلي، أبو القاسم بن أحمد، جامع مسائل الأحكام بما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2002 م، تحقيق: ج 1، ج 2، ج 5.



العمل المشتهر لعلامة تونس الشيخ محمد السنوسي ابن مهنية⁽¹⁾.
 وجرى بعد ذلك عمل منهج الفقهاء بين التونسيين والفاسيين، وفي ذلك تأليف
 الشيخ محمد التاودي، والشيخ علي التسولي، ومن جانب آخر فهناك الشيخ إسماعيل
 التميمي، والشيخ محمد المحجوب في الرسائل، وفي الأحكام التي تسمى الآن
 بالأحكام القياسية التي هي عبارة عن البحث في صور تطبيق الأحكام، وبيان ما ينبغي
 أن يؤخذ به على ما يسنده النظر الفقهي الصحيح من تطبيق الحكم على المحل الذي
 ينطبق عليه.

وضرب ابن عاشور مثلاً لأثر ابن عرفة في هذا القرن بالشيخ محمد الشاذلي ابن
 صالح، والعلامة المفتي محمد النجار، ومن فاس كان الفقيه الشيخ السيد محمد مهدي
 الوزاني، صاحب المعيار الجديد⁽²⁾.

والذي أكاد أجزم به أن كل المالكية من لدن ابن عرفة إلى اليوم عيال في تعريف
 الحقائق الفقهية عليه.

قال الفاضل بن عاشور: (فما من تأليف كلي أو بحث فقهي في القرن التاسع، وما
 بعده يأخذ في بسط باب من أبواب الفقه إلا وهو معتمد قبل كل شيء على إيراد تعريف
 ابن عرفة لتلك الحقيقة)⁽³⁾.

هكذا ظل أثر ابن عرفة في الفقه المالكي بارزاً بمرور الأيام، متمثلاً في ذلك
 المنهج الاجتهادي التجديدي؛ الذي يقوم على جودة البحث، وعلو النظر، والجمع بين
 الأقوال، والتحليل لها والمناقشة الفاحصة، والدراسة المتأنية، التي تؤدي لا محالة إلى
 إثراء الفقه الواقعي، فكان ابن عرفة بذلك مستحقاً لأن يكون مجدد المائة الثامنة،
 وشيخ الإسلام بالمغرب العربي، فكان فخراً لأهل تونس بالعمل الصالح، والعلم
 الراجح.

(1) ابن عاشور، محمد الفاضل: المحاضرات المغربية، ص: 86.

(2) ابن عاشور، محمد الفاضل: المحاضرات المغربية، ص: 87.

(3) ابن عاشور، محمد الفاضل، أعلام الفكر وأركان النهضة بالمغرب العربي، ص: 103.

المختصر الفقهي

تأليف

مُحَمَّدُ بْنُ عَرَفَةَ الْوَرَعِيُّ النَّوْصِيُّ

المتوفى سنة ٨٠٣ هـ

مصححه ونقحه وعلق هوامشه

الدكتور حافظ عبد الرحمن محمد خير

أستاذ الفقه بكلية الإمام مالك للدراسة والقانون بدمشق

طبع على نفقة

مؤسسة خلف أحمد الحبتور

للأعمال الخيرية

مؤسسة خلف
أحمد الحبتور
للأعمال الخيرية



KHALAF AHMAD
AL HABTOOR
FOUNDATION

